بوزياني الدراجي

اللعبة الخاسرة

(مجموعة قصصية)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إهـــــداء

إلى مـــن لعبـــت بهـــم الأقـــدار.. فلعبـــوا بغيرهـــم.. في غيـــاب الـــوعي واليقظـــة..

إلى الخاسريـــن المتباكيـــن.. عـــلى مكتسبـــات ضاعـــت وولـــت..

إلى المهمشيـــن والمظلوميـــن في ديارهـــم وأوطانهـــم..

إلى الصادقيـــن المخلصيـــن لـــوطنهـــم الغـــالي..

إلى الرافضيـــن المقاوميـــن للظلـــم والإقصـــاء..

إلى الذيـــن هبـــُّوا في وجـــه الطغيـــان حيثمـــا وجـــد..

إلى كـــل هـــؤلاء أقـــدم هـــذه المجموعـــة القصصيـــة؛ للعبـــرة، والفائـــدة، والتنويـــه..

بـــوزيـــان الـــدراجي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تقديـــم

كتبـــت هـــذه المجموعـــة مـــن القـــصـــص في فتـــرات زمنيـــة متفاوتـــة.. بـــدءاً بالسبعينيـــات وانتهـــاءً بالتسعينيـــات.. ومـــن هـــذه القصـــص مـــا نشـــر باســـمي الحقيـــقي؛ ومنهـــا مـــا تـــم نشـــره باســـم مستعـــار: وهـــو (عبـــد اللطيـــف مبـــروك).. وذلـــك لأسبـــاب موضوعيـــة؛ تتعلـــق بي شخصيـــاً.. فأمـــا مـــا نشـــر منهـــا في السبعينيـــات؛ فقـــد تـــم ذلـــك مـــن خـــلال مجلـــة ألـــوان الوطنيـــة؛ التابعـــة لـــوزارة الثقافـــة آنـــذاك.. وقـــد اضطـــررت ــ الآن ــ إلى إعـــادة صياغـــة تلـــك القصـــص، وإدخـــال بعـــض التعديـــلات الضروريـــة عليهـــا.. أمـــا القصـــص الأخـــرى فقـــد تـــم نشرهـــا في التسعينيـــات؛ ضمـــن عـــدد مـــن الجرائـــد الوطنيـــة؛ كجريـــدة المســـاء، وجريـــدة صـــوت الأحـــرار مثـــلا..

وقـــد اختـــرت عنوانـــاً ــ جامعـــاً ــ لهـــذه المجموعـــة القصصيـــة؛ استعرتـــه مـــن عنـــوان إحـــدى القصـــص المنشـــورة ضمنهـــا.. وذلـــك لأني وجـــدت أن هـــذا العنـــوان (اللعبـــة الخاســـرة) يصلـــح ــ في الحقيقـــة ــ لـــكي يكـــون عنوانـــاً لكـــل قصـــة مـــن القصـــص المنشـــورة في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المجموعة كلها؛ واحدة فواحدة تقريباً.. فجميعها ــ كما تبدو لي ــ تشتمل على لعبة خاسرة، ولاعبين خاسرين.. خاسرين مادياً، وخاسرين معنوياً.. خاسرين في ذواتهم، وخاسرين في قيمهم.. خاسرين في دورهم وفي أسرهم، وخاسرين في أوطانهم ومع شعبهم..

وهذه المجموعة القصصية لا تخرج ــ في الواقع ــ عن كونها شكلاً من أشكال التعبير البسيط؛ الذي أحببت أن ألجأ إليه.. بغرض الوصول بأفكاري المتواضعة؛ وبمشاعري الفياضة إلى القارئ الكريم.. لأني وجدت أن التعبير البسيط الصادق، يمر ــ حتماً ــ عبر الإفصاح عن الأحاسيس، والمشاعر المتأججة؛ التي يفيض بها صدر كل كاتب.. ولا يتحقق ذلك إلا بتوفر متنفس لها.. وهذا المتنفس قد يكون: بواسطة نظم شعري، أو مقال فني، أو قصة طريفة.. وعلى هذا يمكن اعتبار هذه القصص الصغيرة؛ بمثابة حديث بسيط وشيق؛ وضع في متناول القارئ الكريم.. ذلك القارئ المتعطش للبحث عن سبل الوصول إلى إدراك مشاعر غيره من أبناء جنسه، وفهم ما يدور في صدور الخلق؛ من أحاسيس: الغضب والرضا، أو الحزن، والسرور.. وعلى هذا فقد كتبت هذه القصص بأسلوب ارتضيته لنفسي..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أسلــوب يميــل إلى المرونـــة في الصياغـــة.. والتمـــرد عـــلى بعـــض الأشكـــال الفنيـــة المتصلبـــة..

بـــوزيـــاني الـــدراجي

الجزائـــر في: 01 / 10 / 2001م

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللعبة الخاسرة...

اللعـــب :

وقـف نـادل المقـهى قـرب شلتنـا الـتي كنـت اقـضي معظـم وقـتي معهـا؛ منشغليـن في لعـب ((الدومينـو)).. تلـك اللعبـة ذات التأثيـر العجيـب؛ بقطعهـا السحريـة؛ الـتي لا تقبـل الغربـاء، وتحـث نظيراتهـا، وشبيهاتهـا إلى مجاورتهـا. كنـا منغمسيـن في اللعـب الـذي ملـك عقولنـا، وخـدر حواسنـا؛ فلـم أشعـر بـه عندمـا وقـف خلـف ظهـري.. لقـد أفزعـني حيـن صفـق براحتيـه وصـاح:

ـ الساعـة لَحْداعـش.. الوقـت أوصـل.. رايحيـن نَقفلـوا..

ذلـك هـو أسلوبـه كلمـا أراد تنبيهنـا بحلـول وقـت إقفـال المقـهى.. فهـو عـلى مـا يبـدو يتلـذذ بذلـك الأسلـوب الفـظ في التعبيـر.. كـان قريبـاً مـن مسمـعي؛ حيـن صـرخ بإصـرار، ومبالغـة؛ رغبـة منـه في إزعـاجي.. فانتفضـت لصياحـه؛ كمـا لـو تلقيـت صفعـة عـلى قافيـتي؛ دون سابـق إنـذار. فصرخـت في وجهـه :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ مـازالْ الحـال.. اللعبـة مـا خْلاصَتْـشْ، مـا لرَوَّحْـشْ حـتى نَرْبَحْهُـم..

ـ وَاكْتَـاشْ تَرْبَحْهُـمْ..؟ اللـِّي ارْبَـحْ، ارْبَـحْ بَكْـرِي.. هَيَّـا بِينـا، وَقـتْ التـَّرْوَاحْ أوْصَـلْ.

وعـلى الرغـم مـن إصـراري الشديـد عـلى إتمـام الجولـة؛ فقـد أبى وأصـر ـ بـدوره ـ عـلى إجهاضهـا؛ ولـم يفـد تدخـل رفـاقي؛ عـلى اختـلاف مواقعهـم: الخصـوم منهـم، أو الحلفـاء. لقـد وقفـوا جميعـا ضـد النـادل العنيـد. فـ ((**زغلـول**)) حليـفي لا تختلـف مصلحتـه عـن مصلحـتي؛ لـذا فقـد شاطـرني الاحتجـاج. أمـا ((**لزهـر**))، و((**رابـح**)) فوقوفهمـا ضـد النـادل كـان بسبـب إحساسهمـا أنـه سيقمـع انتصارهمـا.

لـم يطـل الجـدال بيننـا وبينـه؛ إذ تدخـل صاحـب المقـهى؛ حاسمـاً الموقـف بطريقتـه المعهـودة؛ دون أن يتلفـظ بكلمـة واحـدة.. إذ شـرع في إطفـاء مصابيـح الحجـارة الغازيـة ((الكاربيـر)) المثبتـة عـلى الجـدران، أو تلـك الـتي تتـدلى مـن السقـف.

بـدأ الظـلام يزحـف شيئـاً فشيئـاً إلى طاولتنـا. ولمـا امتـدت يـد صاحـب المقـهى إلى المصبـاح المعلـق فـوق رؤوسنـا؛ أحسسنـا بدنـو الأجـل المحتـوم.. ومـا هي سـوى لحظـات حـتى سـاد القاعـة ظـلام دامـس؛ تعـذر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

علينا بسببه مواصلة اللعب.. بل اختنقت كل احتجاجاتنا في أفواهنا. فأجبرنا واقع الحال على ترك مقاعدنا الخشبية، واللجوء إلى خارج المقهى؛ التماساً لضوء السماء..

وقفنا برهة أمام باب المقهى؛ مترددين، حيارى، طامعين في تراجع صاحبها عن قراره.. كنا لا نطيق فراق هذه القاعة.

عندما يحين موعد العودة إلى المنزل ينتابني شعور بالكآبة.. لا أدري لماذا..؟ فأنا أقضي جلّ وقتي خارجه؛ بين المعمل الذي أشتغل فيه، وبين المقهى التي أتسلى فيها. فتبقى للمنزل فترة من الوقت لتنال طعام العشاء، والنوم حتى الصباح.

ولما خرجنا من المقهى؛ لم أجد السماء كما توقعت، وكما عهدتها في الليالي السابقة.. كانت نجومها خافتة، وحزينة.. اختفى لمعانها، وبريقها؛ إذ شحت بضوئها المسلط على الأرض.. كانت السحب تغلفها، وتحجب جمالها، ورونقها.. فازدادت نفسي انقباضاً، وتضاعفت كآبتي؛ فالتفت إلى رفاقي مودعاً :

ــ تَصْبَحُوا عَلَى خَيْرْ.. نَتْلاَقَاوْ غُدْوَهْ في ((الفابْريكَهْ))..

فأجاب ((**زغلول**)) وهو يتمطى؛ متثائبا:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ تَصْبَحْ عْلَى خَيْرْ.. أرْقُدْ بَكْري؛ بَاشْ اتْنُوضْ بَكْري.. كِيمَا تَعْرَفْ.. مَسْيُو ((**جُورْ**)) مَتْسَبَّبْ اعْلِينَا.. اسْمَاحْ امْعَاهْ مَا كَانْشْ..

تعودت الرجوع إلى داري في مثل هذه الساعة من الليل. كنت استمتع خلالها بهدوء الطريق، وسكون المحيط؛ غير أني أحسست هذه الليلة ببعض الاضطراب.. لا أدري ما الذي يجيش في صدري. لم يعد الليل يسحرني بسكونه، وهدوئه. لقد انبعثت في نفسي موجة رهيبة من الأوهام؛ مبعثها الغموض الذي يحيط بي؛ متحالفاً مع ظلمة الليل. التفت حولي؛ بعد طول تأمل. فاكتشفت ضعفي، بوحدتي، وانفرادي.. لقد انصرف رفاقي وتركوني غارقاً في أحلامي الكئيبة.. لم أجد أنيساً يملأ فراغ وحدتي، ولا رفيقاً يشاركني وحشة الليل، وغموض الطريق.

لقد أضحيت وحيداً في درب مظلم.. غير معبد. كنت أزداد خوفاً، ووحشة كلما اعترضتني شلة من الكلاب الضالة.. ومع أنها ضالة؛ فهي لا تستنكف عن مؤانسة بعضها بعضاً.. تسعى للعيش مع بعضها؛ ساعية للاسترزاق من النفايات المتناثرة في الأزقة. أحسست بالرهبة والخوف حين التفت حولي.. فالوحدة مفزعة، والوحشة رهيبة. وعليه.. فقد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حاولت تخفيف الضغوط التي تثقل نفسي، والتهوين من أسباب خوفي واضطرابي.. إنَّ اللجوء إلى أعماق الذات؛ بالمناجاة، والحوار الصامت؛ لهو خير علاج، وأنجع دواء؛ للخوف، والاضطراب.. فلا بأس هنا بعلاج الأوهام بالأوهام. فشرعت في مناجاة نفسي، والتنقيب عن الأوهام داخلها؛ فقلت :

ــ لا داعي للخوف؛ فالكلاب تحرس المكان.. ونباحها يبعث في أعماقي بعض الاطمئنان.. لست وحيداً إذن.. فمعي رفقاء هذا الدرب الرهيب.. فهذا درب كبقية الدروب في قريتنا؛ جميعها خالية، وموحشة في الليالي المظلمة. وحتى بيوت القرية هي الأخرى؛ راكدة، هامدة؛ تكاد تخلو من الحياة.. فسكانها يسابقون الطير؛ طلباً للنوم، والهجوع؛ فيرتمون في أفرشتهم مع البوادر الأولى للغسق.

سرت في الطريق المظلم المخيف نحو داري؛ التي تربض في الطرف الشرقي من القرية. لقد ساعدتني أحلامي المؤنسة على قطع المسافة الطويلة؛ الفاصلة بين المقهى، والمنزل.. لقد حز في نفسي ما لقيته هذه الليلة.. فهزيمتي مؤلمة؛ وزادتني همًّا على همومي.. ومع هذا فأنا لا أعرف مسوغاً مقبولاً لأحزاني، وهمومي.. أتكون الهزيمة هي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السبب..؟ لا أظن ذلك .. فقد عرفت ــ من قبل ــ هزائم عديدة؛ دون أن تترك في نفسي أثراً يذكر.. فما هو السبب إذن..؟ فكرت ملياً؛ ثم قلت لنفسي :

ــ إن سبب الهزيمة هو ((**زغلول**)).. إنه لا يعرف أصول اللعب الجيد؛ كما أنه سيئ الطالع، منكوب العاقبة.. لن أحالفه في اللعب مرة أخرى.. كان علي أن أختار حليفاً آخر.. لا أدري لماذا لم أختر ((**لزهر**))، أو ((**رابح**))..؟! آآه.. لكني لم أختره في الحقيقة؛ لقد اضطررت إلى ذلك؛ لأن ((**رابح**، و**لزهر**)) اختارا بعضهما بعضاً، وتركاني مع ((**زغلول**))؛ أمام واقع الحال؛ فلم أجد بداً من محالفة **زغلول** التعيس.

ــ آ..أ.. أوف.. يبدو إني تحاملت على صديقي المسكين.. فإن حالفني **زغلول** هذه الليلة؛ فلم يحالفني في بقية الليالي السابقة؛ ومع هذا فقد لازمتني الهزائم.. فأين يكمن العيب إذن..؟ أين يكمن..؟

واصلت سيري في الطريق المظلم.. كنت حريصاً على الهروب من واقعي المخيف، واللجوء إلى الأحلام الهنيئة، اللذيذة.. كنت أناجي نفسي للتخفيف عنها :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لـو لـم يتدخـل ذلـك النـادل اللعيـن لكنـت غيـرت النتيجـة.. وربمـا كـان النصـر حليـفي هـذه الليلـة.. لا بـأس؛ سأعـوض خسـارتي يـوم غـد.. سـوف أكسـب حتمـاً.. نعـم سأكسـب لـو حالفـت ((**لزهـر**)) أو((**رابـح**)).. فهمـا بارعـان في اللعـب.. ولكـن.. إذا قبـل أحدهمـا بمحالفـتي.. فقـد يختـارا بعضهمـا بعضـاً؛ كمـا جـرت العـادة في غالـب الأحيـان.

ـ أاوه.. اللعـب.. اللعـب.. ألا يشغـل فكـري شيء آخـر غيـر اللعـب..؟ فمـا فائـدة اللعـب..؟ كـان عـلي أن أكـون الآن في فـراشي الـدافئ؛ فالأحـرى بي لـو كنـت قضيـت سهـرتي مـع أبنـائي، وزوجـتي.. فهـم أولى بالسهـر والمؤانسـة؛ عـوض النكـد، والهزائـم المتتاليـة.. وحـتى لـو ربحـت؛ فمـاذا سأربـح..؟ لا شيء سـوى إرضـاء غـروري.. لقـد أجهـدت نفـسي دون فائـدة..

ـ إاايـه.. سأنـام كعـادتي متأخـراً؛ بسبـب إدمـاني عـلى اللعـب.. وسأجـد صعوبـة في النهـوض باكـراً؛ ومـع هـذا فـلا بـد مـن الاستيقـاظ في الموعـد؛ فالمَسْيُـو ((**جُـور**)) لـن يتسامـح مـعي إذا مـا تأخـرت..

ـ آآآه.. افتكـرت ((الشَّمَّـهْ)) فكرتـني بهـا ((الفَابْريكَـهْ)).. أيـن هي العلبـة..؟ فنَتْفَـهْ منهـا تكـفي لتنشيـط ذهـني لا محالـة.. فـلا بـد مـن معيـن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اصطناعي لبث النشاط في ذهني المتململ.. فما هو السر الذي يكمن في هذا المسحوق المنشط العجيب..؟! فهو لا يتعدى كونه مزيجاً من التبغ، وبعض الأعشاب، وشيء من الرماد.. أيكون السر السحري في هذا المزيج..؟!

سحبت علبة الشمهْ من جيب سترتي، ثم تناولت منها نتفهْ كبيرة بين أصابعي : الإبهام، والسبابة، والوسطى؛ وأسكنتها في جيبٍ أمينٍ داخل حنكي؛ ثم وقفت بعض الوقت لكي أستجمع حواسي كلها، وريثما ينساب في جسمي مفعول الجرعة اللذيذة.

في المنـــزل :

تعجبت حين رأيت منزلي.. فسرعان ما قطعت المسافة الفاصلة بينه وبين المقهى.. أو هذا ما تخيلته.. !! في الحقيقة كنت مستغرقاً في الأحلام، والتأملات.. أيكون هذا هو السبب في اختزال الزمن، وانكماش المسافة..؟ أليس هذا هو باب دارنا..؟ بل هو منزلي فعلاً.. ذلك القفص الكبير الذي يستوعب العائلة بكاملها.. فبقدر سماحته، وسعة فضائه؛ يمكن أن يقاس جموح قلبي، وضيق صدري.. إنه قطعة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مـــن الريـــف المشـــوه بنفايـــات المـــدن.. فهـــو غريـــب عـــن الاثنيـــن.. ضـــل عـــن طـــرازه المعهـــود. ومـــع هـــذا فـــلا أنكـــر فضلـــه؛ فقـــد حمـــاني، وحـــمى عائلـــتي الكبيـــرة : أبي، وأمي، وزوجـــتي، وأبنـــائي، وإخـــوتي بأسرهـــم جميعـــاً؛ أنـــه بيـــت الجميـــع.. يلملـــم الأقربـــاء كافـــة؛ أصـــولاً، وفروعـــاً؛ فهـــو كالثكنـــة الصغيـــرة.. لا يختلـــف عنهـــا إلا فيمـــا لـــه علاقـــة بذيـــوع الأســـرار وانتشارهـــا؛ إذ لا ســـر معتـــرف بـــه في هـــذه الثكنـــة المتميـــزة. فكـــل شيء ملـــك للعائلـــة كافـــة؛ حـــتى الأخبـــار : الســـارة منهـــا، والمحزنـــة.. كانـــت الغـــرف متراصـــة إلى جانـــب بعضهـــا؛ عـــلى امتـــداد شكـــل الـــدار المربـــع. أمـــا الفنـــاء الـــذي يتوسطهـــا فهـــو مركـــز تجمـــع العائلـــة كلهـــا؛ ومرتعهـــا، ومســـرح حركتهـــا ومقـــر سمرهـــا واجتماعاتهـــا. وفي وســـط الفنـــاء تتواجـــد تلـــك البئـــر الغزيـــرة، المعطـــاءة. إذ تعتبـــر بمثابـــة المرتكـــز الـــذي تـــدور حولـــه القضايـــا الهامـــة الـــتي تشغـــل اهتمـــام العائلـــة كلهـــا.. ومـــع هـــذا فقـــد أضحينـــا نهمـــل شأنهـــا، ولا نرعاهـــا كمـــا فعـــل أبونـــا، وجدنـــا.. لا أدري لمـــاذا..؟ ! ومـــاذا دهانـــا..؟ ! أيكـــون السبـــب هـــو الإهمـــال..؟ أم تكمـــن العلـــة في التغيـــرات الـــتي انتابـــت حياتنـــا جميعـــاً..؟ لا أدري.. وكـــل مـــا أدريـــه هـــو أنهـــا مفيـــدة، ويمكنهـــا التخفيـــف مـــن أعبائنـــا الكثيـــرة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لـم يطـل وقـوفي أمـام بـاب الـدار؛ إذ مـددت يـدي متلمسـاً المفتـاح الـذي كـان يمـلأ جيـب سترتي.. إنـه مفتـاح كبيـر جـداً.. يصلـح لاستعمـالات عديـدة؛ إذ يمكنـه أن يتحـول إلى سـلاح فتـاك؛ نظـراً لكبـر حجمـه، وطـول مقاسـه، ومتانـة معدنـه. اجتهـدت في سحبـه مـن جيـبي ثـم أدخلتـه في القفـل العظيـم.. عِظَـم المـاضي الـذي أتانـا منـه..

ولمـا عزمـت عـلى إدارة المفتـاح في القفـل الـدورة الأولى؛ كانـت أعصـابي مشـدودة، ومتوتـرة؛ استعـداداً لمـا سيصـدر عنـه مـن صريـر مزعـج؛ قـد يوقـظ النائميـن.. فصريـره يشبـه صـراخ الغاضـب المحتـج.. ومـرت الأزمـة الأولى ـ بحمـد اللـه ـ دون أن يستيقـظ أحـد.. وبقيـت الـدورة الثانيـة والأخيـرة؛ طلبـت مـن اللـه أن تمـر بسـلام.. فمـا كـان مـني سـوى تنفيذهـا بسرعـة خاطفـة؛ كي أخنـق ذلـك الصـوت المزعـج؛ ولكـني لـم أتمكـن مـن كبـت قلقلـة القفـل المتعاليـة في عنـاد، وإصـرار.. ولـم تنتـهي معانـاتي عنـد هـذا الحـد؛ بـل بـقي البـاب نفسـه؛ الـذي صـدر عنـه ـ حينمـا دفعتـه إلى الداخـل ـ صريـر، وعويـل يشبـه صفـارة إنـذار.. أو صريـخ ثكـلى.. وبعـد فتـرة تربـص، وتحفـز.. كنـت أدرك حينهـا أنـه عـلي ـ أيضـاً ـ إقفـال البـاب؛ ولـن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتحقق ذلك دون مشاكل، وإزعاج.. لقد عانيت كثيراً لدى إقفاله كذلك.. عندها مسحت العرق المتصبب من جبيني، وتنفست الصعداء. وقلت لنفسي :

ـ أااوف.. الحمد لله؛ لم يستيقظ أحد.. يجب إصلاح هذا القفل اللعين..

ـ إيه.. كل ليلة أقول هذا، وأتوعده بالإصلاح؛ ثم أنساه في الغد..

ـ ولكن لماذا لا يصلحه الآخرون..؟ ! أليست الدار للجميع..؟ مع أن إخوتي لديهم مفاتيح تشبه مفتاحي، والقفل واحد؛ إلاَّ أنهم لا ينزعجون مثلي من صريره.. فما هو السر يا ترى..؟ لعلهم لا يسمعون الصرير، والقلقلة.. أو أن مفاتيحهم خير من مفتاحي..

ـ لا.. أبداً فقد عدت يوماً من السفر رفقة أخي ((**واضح**)) ففتح الباب بمفتاحه؛ فكان له صوت كصوت مفتاحي.. إذن فما هو السر..؟

ـ آ ا اه.. قد يكون السبب في عدم اكتراثهم بالصرير، والقلقلة أنهم جميعاً يفتحون الباب، ويقفلونه في وضح النهار.. إذ يعودون إلى الدار مبكرين؛ قبل لجوء الناس إلى مهاجعهم.. أما أنا فمصيبتي تكمن في الليل.. الليل الذي تشبث بي؛ وتمسكت به.. لم يدعني، ولم أتركه..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ــ إيــه.. لا علينــا الآن.. سأتكفــل بــه وحــدي غــداً بعــد عــودتي مــن العمــل؛ هــذا إذا افتكــرت؛ ولــم يسحبــني رفــاقي معهــم إلى المقــهى؛ كمــا هي العــادة..

دببــت بهــدوء، وحــذر نحــو بــاب غرفــتي الكئيــب.. كــان أفــراد العائلــة نائميــن في هــذه الأثنــاء؛ فبــدا لي سكــون الــدار كسكــون المقابــر.. محيــط صامــت وفــراغ مهــول.. ليــس لــدى سكــان هــذه الــدار مــا يغريهــم، أو يحثهــم عــلى السهــر؛ فهــم ينامــون مــع الغســق؛ ويستيقظــون مــع الطيــر عنــد بــزوغ الفجــر.. فلهــم أعمــال؛ هي مصــدر رزقهــم؛ والمشرفــون عــلى العمــل والعمــال لا يتسامحــون مــع المتهاونيــن أبــداً..

تقدمــت مــن بــاب غرفــتي بخطــوات مثقلــة بالإحــراج، والتــردد؛ ثــم أدخلــت مفتــاح الغرفــة ــ الــذي كــان مــعي ــ في القفــل وفتحــت البــاب بهــدوء؛ ثــم مــددت يــدي إلي ســراج ((الكيروزيــن)) المعلــق في الجانــب الأيســر مــن البــاب؛ فــأدرت فتيلتــه كي أزيــد في وهــج الضــوء..

لقــد اعتــادت زوجــتي ((**راضيــة**)) تــرك ضــوء الســراج خافتــاً؛ حــتى تســاعــد الأطفــال عــلى النــوم؛ وحــتى لا أتخبــط في الظــلام عنــد قــدومي.. وبانتشــار

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الضـــوء ساطعـــاً في جنبـــات الغرفـــة؛ انتفضـــت زوجـــتي قائمـــة. التفتـــت إلي وهي تتمـــطى، وقالـــت :

ــ رَاحْ الحَـــالْ.. وَاشْ كُنْـــتْ الدِّيـــرْ حَـــتَّى ضُـــرْكْ..؟

ــ كُنْـــتْ في القَهْـــوَهْ.

ــ إ إ إ يـــهْ.. انْدِيرْلَـــكْ تَاكُـــلْ..؟ دَرْنَـــا طْعَـــامْ مَسْفُـــوفْ.. بُـــوكْ الشَّايَـــبْ هُـــوَ اللِّي قَـــالْ دِيـــرُوهْ.. اللـــَّهْ غَالَـــبْ.. نَعَرْفَـــكْ مَـــا تَشْتِيهِـــشْ.. لَكَـــنْ هُـــوَ اللِّي قَـــالْ..

ــ هَـــاتِ اللِّي كَايـــنْ.. وَاشْ اتْحِـــبِّي.. كُـــلْ لَيْلَـــهْ مَسْفُـــوفْ.. مَاعْرَفْتَـــشْ كِيفَـــاشْ مَـــا كْرَهْـــشْ مَنُـــو..

ــ كَـــانْ اكْرَهْـــتْ انْتَـــا؛ جِيـــبْ لِي المَصْـــروفْ؛ وَانَـــا انْدِيرْلَـــكْ اللِّي اتْحِـــبْ..

ــ إِيَّـــاهْ.. حَبَّيْـــتِي تْقُـــومْ القِيَامَـــهْ في هَـــذِي الـــدَّار..؟ جِيـــبِي البَرْبُوشَـــهْ أَخَيَّـــرْ..

نزلـــت **((راضيـــة))** مـــن السريـــر الخشـــبي البـــالي الـــذي اكتسبنـــاه يـــوم زواجنـــا وخرجـــت مـــن الغرفـــة؛ في اتجـــاه المطبـــخ الجمـــاعي؛ الرابـــض في الجهـــة المقابلـــة لغرفتنـــا.. فأنـــا أعلـــم أنهـــا ستستغـــرق بعـــض الوقـــت لـــكي تحضـــر الطعـــام؛ وفي هـــذه اللحظـــات تراكمـــت في داخـــلي أفكـــار، وملاحظـــات شغلـــت نفـــسي؛ فقلـــت لهـــا :

ــ مسكينـــة **((راضيـــة))**؛ فهـــي امـــرأة طيبـــة؛ مخلصـــة؛ ووفيـــة.. إنهـــا تختلـــف عمـــن سمعـــت بهـــن مـــن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نساء المدينة.. فهي تعمل فوق جهدها في سبيل إرضائي، وسعادة أبنائها.. لقد اجتمعت فيها صفات الريف اللينة، المعطاءة؛ إنها تتضح بالخير، وتنطق بالصدق، وتفيض بالود، والعاطفة.

ـ متى سأفيق متاهتي..؟ هلاَّ أصغيت لصوت الحق في داخلي، وتوقفت عن السهر في المقاهي.. إنني أعذب نفسي باللعب الذي لا ينتهي.

ـ ومع هذا فـ((**راضية**)) صبورة، وخدومة.. إنها لا تشتكي، ولا تتذمر.. فالحياة الزوجية مقدسة في عرفها.. تقوم بواجباتها الزوجية كاملة؛ في الوقت الذي أشعر بيني وبين نفسي أني مقصر في حقها، وحق أبنائي.. إنها توزع خدماتها على أفراد العائلة كافة؛ تخدم أبي، وأمي كما تخدمني.. دون كلل أو ضجر.. فالذي يشقيها قد يسعد الآخرين.. تلك هي فلسفتها في الحياة.

في هذه اللحظة دخلت ((**راضية**)) وبين يديها قصعة خشبية؛ تنبعث منها رائحة الطعام المشبع بالسمن والسكر. وضعتها على المائدة الخشبية الصغيرة التي أتربع بقربها؛ ثم تناولت طاساً فخارية؛ كانت قد خبأتها تحت السرير؛ ملئت باللبن الحامض؛ فهي تعرف مدى حبي، وولوعي به؛ لذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقد خبأته في مكان أمين كي تقدمه لي؛ حتى يساعدني علي بلع الطعام. تأملت ملياً في محتوى القصعة؛ كي أنشط شهيتي؛ ثم سحبت المائدة؛ وحصرتها بين ركبتي؛ ثم انكببت على الطعام؛ آكل بتقزز، وملل..

ــ لقد طفح كيلنا من هذا الطعام الذي فرضه أبونا على العائلة كلها.. إنه لا يمل منه.. ولا يجرؤ أحد على تعديل الوجبة دون موافقته.. بل لا يجرؤ أحد على إبداء رأيه، أو استنكار محتوى الوجبة..

ــ لا علينا فجرعات من اللبن الحامض ستساعدني حتماً على إدخال الطعام داخل جوفي؛ وفي داخله سيأخذ جسمي حاجته، دون ضرورة إلي شهية، أو مقبلات.. فما يعجب والدي؛ يجب أن يعجبني أيضاً.. وجوعي سيقبل كل شيء.. أي شيء.. حتى الحجر..

ــ علي أن أتناول جرعات عديدة من اللبن؛ فحلقي جاف هذه الليلة.. لا أدري أسباب ذلك؛ أيكون السبب هو الطعام الذي يفتقر إلى المشهيات؟ أم هي الهزيمة التي تجرعتها من أقراني هذه الليلة..؟ فكلاهما مر المذاق، وهضمهما شاق..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي النهايــة لــم أتمكــن مــن أكــل مــا في القصعــة كلــه؛ بــل تركــت جــل الطعــام مكدســاً بهــا؛ ثــم نهضــت بعــد أن مسحــت فــمي وشــاربي براحــتي، ثــم فركتهمــا جيــداً؛ الواحــدة مــع الأخــرى؛ كي أزيــل مــا علــق بهمــا مــن بقايــا الطعــام؛ ثــم ألقيــت بجســدي المنهــك عــلى فــراش النــوم؛ تاركــاً للســاني إكمــال مهمــة التنظيــف، والمســح داخــل فــمي..

أطفــأت ((**راضيــة**)) الســراج، واختفــت داخــل الغطــاء الــدافئ.. تاركــة القصعــة حافلــة بطعامهــا في موضعهــا؛ دون أن تكلــف نفسهــا بتغطيتهــا؛ فــهي تعلــم أن لا أحــد سيأكلهــا يــوم غــد..

وبعــد لحظــات أحسســت بــأن زوجــتي غرقــت في نــوم عميــق.. فليــس لهــا همــوم تعكــر رقادهــا.. وحاولــت اللحــاق بهــا في نومهــا؛ فلــم أقــدر؛ إذ وقفــت أمــام غفــوتي جيــوش مسلحــة بالقلــق، والهواجــس المتنوعــة.. فتململــت ملياً، وتقلبــت يمنــة، ويســاراً؛ دون جــدوى.. لــم يفــدني التعــب الــذي أنهــك جســمي.. فشرعــت أتنقــل مــن موقــف إلى آخــر؛ فمــن المعانــاة في عمــلي بــ((الفابريكــة))، والاضطهــاد الــذي يسلطــه عــلي ((**جــور**)) صاحبهــا؛ إلى التسلــط الأبــوي في المنــزل؛ بفــرض قناعتــه عــلى العائلــة كافــة؛ صغيرهــا، وكبيرهــا؛

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دون اعتبار لأحد؛ إلى حياة البؤس، وضنك المعيشة، وضيق الغرفة التي أسكنها مع أبنائي؛ إلى هموم اللعب مع الزملاء، إلى عناد ذلك النادل اللعين الذي لا يتسامح مع زبائنه في مسألة الوقت.. وقت الإغلاق طبعاً. هذه الأمور كلها مرت في شريط اختلفت ألوانه، وأشكاله؛ فمنها الناصع، ومنها القاتم.. وهكذا ساقتني الهواجس إلى الحديث مع نفسي :

ــ آ آ آه.. لو تسامح معي ذلك النادل؛ لكنت غيرت النتيجة إلى صالحي.. كيف..؟ أيكون الآخرون أحسن مني..؟ بماذا يتميزون علي..؟ أليس لي عقل كعقولهم..؟ لماذا يكسب ((**لزهر**))، و((**رابح**)) اللعب دوماً إذن..؟ لعلهما كانا يغشان في اللعب، أيعقل هذا..؟ فإن غشاني مرة؛ فهل يمكن لهم الاستمرار في الغش إلى ما لا نهاية..؟

ــ لا.. ثمة علة أخرى؛ علي اكتشافها..

ــ ماذا لو حدثت المعجزة؛ ووجدت كنزاً..؟ عندها ستتغير حياتي، فانتشل أولادي، و((**راضية**)) من هذا البؤس الذي يخيم علينا منذ عرفنا هذه الدنيا الفانية.. حينها سأشتري داراً.. بل قصراً في المدينة.. نعم في المدينة.. فالقرية لا تليق بي؛ وأفضل تربية أولادي في المدينة؛ بخيراتها، وأضوائها، ومباهجها..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ــ أوااه..ه كــدت أن أغــوص في النــوم.. لا.. أحــب أن أكمــل تفكيــري؛ لكنــه يغريــني.. آااه.. لا أقــدر عــلى التركيــز.. لا أقــدر.. لا أقــدر..

اللعبــة الكبيــرة :

ــ مــا هــذا..؟! كيــف دخلــت إلى هــذا القصــر..؟ ! ومــن وضعــني هنــا..؟! عجيــب.. ! ! مــا هــذا..؟ هــل هــو حقيقــة أم هــو خيــال..؟ ! مــا هــذا كلــه..؟ مــا هــذا البــذخ، والفخامــة..؟ ! لــم أر في حيــاتي رونقــاً، وجمــالاً، وشموخــاً كهــذا.. فكــل مــا أراه ثميــن.. الجــدران المرمريــة، والــزرابي الفارســة، والأرائــك الوثيــرة المطعمــة بالأصــداف والأســلاك الفضيــة، والمزهريــات الخزفيــة الرفيعــة، والأثــاث النحــاسي الناصــع، والتحــف الذهبيــة الخلابــة.. كيــف وصلــت إلى هــذا..؟ !

التفــت حــولي باحثــاً عــن جــواب أو تفسيــر لمــا أراه الآن؛ فلــم أر شيئــاً غيــر الوجاهــة والفخامــة المبثوثتيــن في تلــك القاعــة البهيــة ذات الأفرشــة الوثيــرة والصنعــة الرفيعــة الراقيــة. لقــد انبهــرت بمــا شاهــدت؛ فلــم تقــف عينــاي عــن التجــوال؛ منتقلــة مــن زاويــة إلى أخــرى، ومــن تحفــة إلى غيرهــا؛ وفجــأة طــرق سمــعي صــوت غريــب:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ الســـلام عليكـــم.

ـ باســـم اللـــه الرحمـــن الرحيـــم.. ! ! وعليكـــم السـلام؛ مـــن أنـــت..؟ ! ومـــن أيـــن خرجـــت..؟ !

ـ لا عليـــك.. كنـــت خلـــف هـــذه الستـــارة.. فأنـــا أحـــب الجلـــوس خلفهـــا..

ـ مـــا هـــذا.. مـــن أنـــت؟ أمـــن الأنـــس أنـــت..؟ !

ـ ومـــا الـــذي تعتقـــده.. هـــل أنـــا مـــن الجـــن إذن..؟ نعـــم فأنـــا مـــن الأنـــس.. ألا تـــرى حـــالي..؟

ـ إذن مـــن أنـــت.. وأيـــن أنـــا..؟ !

ـ لا تتعجـــل.. خيـــراً تلـــقى بـــإذن اللـــه..

ـ أيـــن أنـــا؟

ـ أنـــت في قصـــر الإمـــارة.. تفضـــل اجلـــس؛ سيـــأتي بقيـــة الأعيـــان بعـــد قليـــل..

ـ أعيـــان..؟ ! ومـــا علاقـــتي بقصـــر الإمـــارة..؟ ! لـــم أفعـــل شيئـــا يستـــدعي معاقبـــتي..

ـ ومـــن قـــال أن حضـــورك هنـــا عقـــاب لـــك..؟ ! بـــل هـــو تبجيـــل، وتقديـــر، وتعظيـــم..

ـ إذن.. مـــن أنـــت..؟

ـ اســـمي ((**زغلـــول**)).

ـ **زغلـــول**..؟ ! عجبـــاً.. ! ! ((**زغلـــول**)) آخـــر.. مـــا هـــذا..؟ !

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أدهشني باسمه هذا الذي يشبه اسم زميلي الخائب.. كما أدهشني أكثر بأقواله الغريبة عن الأعيان، وقصر الإمارة؛ فلم أستطع متابعة سرعة المفاجئة.. كان ينقصني التركيز، وخانتني إرادتي؛ فانهارت قواي، وانشل لساني؛ فلم أواصل تساؤلاتي؛ وجلست حيث أشار علي في استسلام، ورضوخ للأمر..

ولكني تداركت الحال بعد فترة؛ حينما طرأت أمور جديدة؛ بظهور أناس آخرين؛ فسألت نفسي:

ــ آاه.. من هؤلاء الجماعة الذين خرجوا من خلف الستارة أيضاً..؟ ! أيكونون من سماهم بالأعيان..؟ إنهم ثلاثة رجال.. ماذا يقولون لبعضهم ..؟ ! إنهم يتخافتون، ويتهامسون مع الرجل المدعو ((**زغلول**))؛ الرجل الذي سبقهم إلى الظهور.. ماذا يتآمرون بينهم..؟ لا أدري.. سوف نرى بعد قليل.. آآآ ه هاهم يتقدمون مني.. لطفك يا ربي..

ــ السلام عليكم.

ــ وعليكم السلام.

ــ تفضل.. تفضل بالجلوس.. اسمح لنا؛ فقد أطلنا عليك.. تفضل.. اجلس هنا..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تقدمت منهم بعد تردد وتململ؛ ثم استجمعت ذهني وربطت جأشي ثم قلت:

ـ باسم الله.. ها قد جلست..

ـ نراك في حيرة..

ـ طبعاً.. وماذا تنتظرون مني..؟

ـ ها ها ها.. أضحكتنا.. إنك خفيف الظل، وذكي النكتة..

ـ عجباً.. !! لم أكن أعرف هذا.. !! ومع ذلك لا يهم.. والآن ماذا تريدون..؟

ـ لماذا العجلة..؟ نريد لك كل خير إن شاء الله.. ولا ننتظر منك إلا الخير كذلك..

ـ إذن فمن أنتم..؟ وماذا تريدون..؟ وما هو سبب وجودي في هذا القصر الفخم..؟

ـ أعرفك بالإخوان.. فأنا كما قلت لك؛ اسمي ((**زغلول**))، وهذا الذي إلى جانبك الأيسر اسمه ((**لزهر**))، والذي بجانبه يسمى ((**رابح**))؛ أما الثالث فاسمه ((**ظافر**)).

ـ أصحيح ما تقول..؟ اسم هذين : ((**لزهر**))، و((**رابح**))..؟ !

ـ نعم.. ولم السؤال..؟

ـ غريب.. !!

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ ومـــا الغرابـــة في ذلـــك..؟

ـ إذن أنـــت ((**زغلـــول**)).. وهـــذا ((**لزهـــر**)).. والآخـــر ((**رابـــح**))..؟ !

ـ مـــا هـــذه الأسئلـــة..؟ ! نعـــم هـــذه هي أسماؤنـــا..

حينمـــا جـــرى هـــذا الحـــوار الأخيـــر بيـــني وبيـــن ((**زغلـــول**)) الجديـــد؛ بـــقي الرجـــال الثلاثـــة صامتيـــن؛ كانـــوا يتابعـــون حوارنـــا في سكـــون.. إذ يبـــدو أنهـــم لا يرغبـــون في الحديـــث.. فثمـــة مـــا يشغـــل بالهـــم؛ ويستحـــوذ عـــلى اهتمامهـــم.. عندهـــا التفـــت إليهـــم، وسألـــت:

ـ يبـــدو أن الوقـــت قـــد حـــان لـــكي تعطـــوني تفسيـــراً معقـــولاً عمـــا يحـــدث الآن.. فأيـــن أنـــا..؟ وكيـــف وصلـــت هنـــا..؟ ومـــن تكونـــون..؟

خـــرج ((**لزهـــر**)) عـــن صمتـــه؛ وقـــال وهـــو يبـــدي ابتسامـــة مصطنعـــة صفـــراء :

ـ آاه.. لا بـــأس.. أنـــت الآن في قصـــر الإمـــارة، ونحـــن أعيـــان الدولـــة؛ أصحـــاب الأمـــر، والنـــهي فيهـــا.. أ أ أ.. بعـــد الأميـــر طبعـــاً.. بعـــده طبعـــاً.. فهـــو الأميـــر.. والأوامـــر تصـــدر عنـــه؛ ثـــم ننقلهـــا نحـــن إلى مـــن يهمـــه الأمـــر.. أليـــس كذلـــك أيهـــا الزمـــلاء..؟

ـ نعـــم.. نعـــم.

ـ ومـــا هي علاقـــتي أنـــا بكـــل ذلـــك..؟ !

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ مهـلاً.. مهـلاً.. سنشـرح الأمـر حـالاً.. أنـت تعلـم أن الأميـر قـد تـوفي منـذ أيـام..

ـ لا.. لا أعلـم بذلـك.. والخبـر عرفتـه الآن منكـم.. ومـن هـو الأميـر هـذا..؟ !

ـ لا يهـم.. فالأميـر.. يرحمـه اللـه.. تـوفي دون أن يتـرك وصيـة، كمـا أنـه بـدون أولاد، ولـم يسبـق لـه تعييـن ولي للعهـد..

ـ يرحمـه اللـه.. ومـا علاقـتي أنـا بكـل هـذا..؟

ـ مهـلاً؛ ستعـرف حـالاً.. لا تتعجـل..

ـ بصراحـة.. لقـد اخترنـاك لمنصـب الإمـارة..

ـ آاه.. مـاذا..؟ ! ! الإمـارة..؟ ! إمـارة مـاذا..؟ ! !

ـ إمـارة البـلاد.. نعـم البـلاد..

ـ هـا هـا هـا.. إمـارة البـلاد.. ولمـاذا..؟ أتسخـر مـني..؟

ـ حـاشى للـه.. أبـداً.. إني لا أسخـر.. لقـد اخترنـاك لقيـادة البـلاد..

ـ هـاه.. اسمحـوا لي بالانصـراف.. لسـت سخريـة بينكـم..

ـ لا سمـح اللـه.. كيـف تقـول هـذا..؟ لـم نـأت بـك لنسخـر منـك.. كيـف نسخـر ممـن اخترنـاه لقيادتنـا..؟ !

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ يـا أخي.. دعـك مـن القيـادة.. فهـي كبيـرة جـداً.. وصارحـني بمـا تريدونـه مـني دون التـواء، وتمويـه.

وهنـا تدخـل مـن أسمـوه بـ ((**رابـح**))؛ ساعيـاً لحسـم الجـدل، وتوضيـح الأمـر، فقـال مطمئنـاً:

ـ ومـا هي فائدتنـا مـن السخريـة منـك..؟ أيعقـل أن نتسـلى هكـذا..؟ وبهـذه الطريقـة..؟ لقـد اجتهدنـا كثيـراً لـكي نعثـر عليـك.. كمـا عانينـا معانـاة شديـدة لاختيـارك، والوصـول إليـك.. أيعقـل إذن أن نقـوم بكـل هـذا لمجـرد التسليـة، والسخريـة..؟ لا.. أبـداً.. نحـن لا نسخـر.. بـل مـا نقولـه لـك صحيـح..

ـ لنفـرض أن مـا تقولونـه صحيحـاً.. ولكـن كيـف أكـون أميـراً للبـلاد؛ وأنـا كمـا تـرون.. لسـت مـن سلالـة الأمـراء، ولـم أر في حيـاتي أميـراً.. فكيـف أصبـح أميـراً بيـن عشيـة وضحاهـا..؟! ألا تـرون أني لا أجيـد شيئـاً يتعـدى مهنـتي في ((الفابريكـة)).. وحـتى لعبـة ((الدومينـو)) الـتي لا أجيـد غيرهـا مـن الألعـاب؛ لـم يكـن الحـظ يحالفـني فيهـا دومـاً.. فمـا بالكـم بإمـارة البـلاد..؟! هـذا هـو الجنـون بعينـه..!!

ـ أبـداً.. نحـن بعيـدون عـن الجنـون والحمـد للـه.. ونعـرف جيـداً مـا نعمـل، ولمـاذا اخترنـاك..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ آ آ آه.. لمـــاذا إذن..؟

ـ مهـــلاً.. مهـــلاً.. لا تنفعـــل.. لقـــد اخترنـــاك لطيبتـــك، وحســـن نوايـــاك، وليـــن طبعـــك، وبساطتـــك، وجمـــال أحلامـــك، وبغضـــك لضيـــق العيـــش، وميلـــك للرحمـــة، ونبـــذك للشـــدة.. فأنـــت أصيـــل بالفطـــرة.. نـــقي السريـــرة، طيـــب القلـــب، وافـــر الحلـــم، كريـــم الخصـــال؛ شهـــم، مبســـوط اليـــد، لا يعـــرف البخـــل طريقـــاً إليـــك.. كـــل هـــذه الصفـــات متوفـــرة فيـــك؛ ونحـــن نعرفهـــا جيـــداً.. لـــذا أحسسنـــا أنـــك أفضـــل النـــاس للتعامـــل معنـــا.. أ أ أ.. مـــع شعبـــك طبعـــاً..

تسربـــت كلمـــات الرجـــل إلى قلـــبي كمـــا يتســـرب المـــاء الـــزلال في حلـــق عطشـــان قتلـــه الضمـــأ.. فناجيـــت نفـــسي قائـــلاً:

ـ يبـــدو في كـــلام هـــذا الرجـــل الصـــدق.. قـــد يكـــون يحبـــني حقـــاً، ومعجبـــاً بي فعـــلاً.. فمـــن يـــدري.. لعلهـــم يفضلونـــني ـ بالفعـــل ـ عـــلى غيـــري.. ومـــن يـــدري لعلـــني أمتـــاز بصفـــات وخـــلال أجهلهـــا، ويعرفهـــا غيري.. ربما كانـــت لي شعبيـــة كبيـــرة بيـــن النـــاس؛ وأنـــا لا أدري.. فمـــا هي فائدتهـــم في السخريـــة مـــني..؟ لا.. لا أضنهـــم يسخـــرون.. ولمـــا وصلـــت إلى هـــذه النتيجـــة قلـــت لـــه :

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ قد يكون ما قلته صحيحاً.. غير أني أحتاج إلى بعض الوقت؛ كي أفكر في الأمر.. فما عرضتموه علي ليس بسيطاً..

ـ لا بأس.. فكر كما يحلو لك.. ولكن لا تطل علينا.. فلسنا وحيدين في الميدان..

ـ آ آ آه.. نعم.. ما الذي تعنيه بأنكم لستم وحيدين..؟ هل هناك فريق آخر غيركم..؟

ـ لا.. لا.. لقد أخطأت فهمي.. إنني أخاف ظهور الطامعين، والمغامرين إذا ما طال الأمر؛ لذا ففي سرعة أخذ القرار وقاية، وحسم للموضوع..

ـ ومن هؤلاء الطامعون..؟

ـ الدنيا مليئة بالأشرار والمغامرين.. فمن يعلم..

ـ أقول الحق.. فأنا خائف من العاقبة، وسوء المصير..

ـ وما الذي يخيفك..؟ نحن متحكمون في زمام الأمور.. المهم أن تتخذ قرارك بسرعة.. وأتمنى أن يكون إيجابياً. والآن نتركك بعض الوقت؛ كي تفكر بهدوء.

قال هذا، ثم نهض مع زملائه، وانسلوا واحداً بعد الآخر من حيث أتوا؛ خلف الستارة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعـدهـا وجـدت نفـسي في خلـوة هادئـة؛ تساعـد عـلى التفكيـر والتدبيـر..

ـ ولكـن في مـاذا أفكـر..؟ فالأمـر لا يحتـاج إلى تفكيـر.. فهـل أنـا عـلى استعـداد لتـرك هـذه الهبـة الـتي منحـني إياهـا اللـه..؟ هـل أرفـس النعمـة الـتي سقطـت عـلي فجـأة، ودون جهـد يذكـر..؟ هـل أرفـض حيـاة النعيـم والتـرف والبـذخ، وأعـود حيـث كنـت.. إلى غرفـتي الكئيبـة، وجحيـم ((فابريكـة)) **((جـور))**، ورذالـة نـادل المقـهى..؟

ـ لا.. لسـت مجنونـا كي أرفـض نعمـة اللـه.. ثـم مـاذا سأخسـر إن قبلـت..؟ لا شـيء.. لـن أخسـر شيئـاً.. مـع أني تعـودت عـلى الخسـارة.. خاصـة في اللعـب.. فهـذه المـرة سـوف لـن أخسـر.. ربمـا نهـض حـظي هـذه المـرة.. لقـد جـاءني هـذا العـرض بـدون عنـاء، ولـم أسـع إليـه.. فهـو الـذي عـرض نفسـه عـلي.. فهـل أرفضـه..؟ يبـدو أن الاختيـار لا يحتـاج إلى تفكيـر.. فلـن يكلفـني شيئـاً لـو قلـت نعـم.. نعـم.. فلأقولهـا بـدون تـردد..

قـررت بـدون عنـاء خـوض التجربـة.. ولـم يطـل بي التفكيـر في الأمـر؛ إذ سرعـان مـا وصلـت إلى قـرار القبـول..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لـم لا أقبـل بهـذا العـرض المغـري..!؟ فـإذا تعـذر الكسـب فيـه؛ فلـن تـأتي منـه خسـارة تذكـر.

أحسسـت في هـذه اللحظـة بيـد تداعـب كتـفي؛ فالتفـت نحـو صاحـب اليـد؛ الـذي قـال لي:

ـ إيييـه.. مـا رأيـك الآن..؟

ـ أووف.. هـذا أنـت يـا ((**زغلـول**))..؟ لقـد أفزعتـني، وفاجأتـني دون إنـذار.. مـن أيـن خرجـت..؟

ـ خرجـت كالعـادة مـن خلـف الستـارة ولـم تـرني.. لمـاذا ذعـرت..؟

ـ لقـد أزعجتـني بظهـورك فجـأة؛ دون سابـق إنـذار، أو تمهيـد..

ـ هـا هـا هـا.. لا يهـم.. مـا هـو قـرارك النهـائي..؟ لقـد تركنـاك مـدة فاقـت الساعـة.. فمـا هـو رأيـك الآن..؟

ـ يـا سيـدي أوافـق.. ولكـن الموضـوع يحتـاج إلى حـوار طويـل معكـم.. فليـس لـدي أي فكـرة عـن الإمـارة، ومـاذا سأعمـل فيهـا..

ـ المهـم قـرارك بالموافقـة؛ أمـا البـاقي فاتركـه لنـا.. فنحـن أهـل لـه.. لا تشغـل بالـك.. اهتـم بشئونـك الخاصـة.. واتـرك الأمـر لنـا.. اسمـح لي الآن بالرجـوع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى الإخــوان.. فإنهــم في انتظــار الجــواب.. أتركــك بالسلامــة.. إلى اللقــاء..

الشَّــــرَك :

ـ عجبــاً.. ! ! أهــؤلاء الأعيــان كلهــم في الإمــارة..؟ ! فهــذه القاعــة المتراميــة الأطــراف تكــاد تختنــق بهــم.. ربمــا تجــاوز عــددهــم الآلاف.. مــا هــذا أكلهــم في خدمــة الإمــارة..؟ لا.. ربمــا تكــون الإمــارة هي الــتي في خدمتهــم.. نعــم هي الــتي تخدمهــم.. فمــن يدفــع رواتبهــم، ومنحهــم..؟ أليســت الإمــارة هي الــتي تتــولى الدفــع.. مقابــل مــاذا..؟ مقابــل كونهــم أعيانــاً.. أعيانــاً لا غيــر..؟

ـ يبــدو أنهــم تعــودوا عــلى الأعيــاد والاحتفــالات.. احتفــالات في كــل المناسبــات.. احتفــالات تقــدم كــل شيء طيــب ولذيــذ.. إنهــم يتصرفــون بتلقائيــة ويســر.. فالعــادة تمــرن السلــوك.. والحاجــة تستهــون المحظــورات..

ـ يحــق لهــم الفــرح والمــرح، والتمتــع بمــا تجــود بــه إمارتهــم.. لــن يخســروا شيئــاً..؟ سيأكلــون، ويمرحــون، ويذهبــون لديارهــم مشبعيــن بالمأكــولات، والمشروبــات، والمسليــات.. آااه.. هــذه هي السعــادة الــتي تتحــدث عنهــا زوجــتي المسكينــة ((**راضيــة**)).. ليتــني أحضرتهــا لتنغمــس فيهــا..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ سمو الأمير.. تفضلوا إلى الصدارة لتلقي التحية، والبيعة من طرف الأعيان؛ قبل أن يجلسوا لتناول الإفطار..

ـ من أنت..؟ آه.. ألست أنت هو ((**ظافر**))..؟

ـ نعم.. خادم سموكم؛ ((**ظافر**)).. مدير التشريفات..

ـ مدير التشريفات.. ماذا تعني التشريفات..؟

ـ ستعرفون ذلك مع مرور الوقت.. فشرحها الآن لسموكم سيطول.. وأنت تعلم المهام الخطيرة، والمستعجلة التي تنتظركم.. أقترح على سموكم الكريم التفضل بإعطائها الأسبقية..

ـ لا بأس.. هيا بنا..

سار ((ظافر)) أمامي بخطوات متئدة، مثقلة بالتصنع والمبالغة الواضحة.. فتضايقت من ذلك؛ ولكني تمالكت نفسي، وبددت ضيقي بصعوبة..

ـ إنه يتقدمني بخطوات الراقص المحترف؛ لها إيقاع خاص وفيها شيء من التصنع؛ عليّ أن أسير خلفه؛ بين الصفوف المتراصة بالناس.. آ آه.. بين الذين يسمونهم الأعيان.. إنهم ينظرون إلي بنظرات غريبة.. نعم غريبة.. لم أتعود على هذه النظرات.. إنهم يقولون شيئاً بعيونهم لم أفهمه.. نعم لم أفهمه.. إني لم أتعود عليها.. فهي نظرات تختلف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عمـــا عرفتـــه في نظـــرات زمـــلائي في ((الفابريكـــة))، وأصحـــابي في المقـــهى.. تبـــدو تلـــك النظـــرات ــ أحيانـــاً ــ مخيفـــة.. نعـــم فـــهي مخيفـــة، وغامضـــة..

ــ لا بـــد مـــن مواصلـــة المتابعـــة وملاحقـــة خطـــوات ((**ظافـــر**)) المصطنعـــة.. إنـــه يقـــودني في ممـــر طويـــل؛ صنعـــه الأعيـــان بصفوفهـــم..

ــ إن هـــذا يبعـــث عـــلى الخجـــل.. إني خجـــل مـــن نفـــسي.. يبـــدو لي أني أصبحـــت فرجـــة، ومصـــدر تسليـــة.. مثـــل حيوانـــات الســـرك الـــذي جاءنـــا في السنـــة الماضيـــة إلى القريـــة.. نعـــم.. كانـــت تلـــك الحيوانـــات تسيـــر خلـــف سائسهـــا في طابـــور.. وتـــدور في الساحـــة الصغيـــرة أمـــام المتفرجيـــن..

ــ هـــا هـــو ((**ظافـــر**)) يتقـــدم إلى مكـــان يشـــرف عـــلى القاعـــة كلهـــا، ويتصدرهـــا. كـــان بـــه بقيـــة الشلـــة.. الزمـــلاء الثلاثـــة: ((**زغلـــول**)) و((**لزهـــر**)) و((**رابـــح**)).. إنهـــم متراصـــون في صـــف واحـــد.. يتطلعـــون إلى أعيـــان القاعـــة..

ــ يبـــدو أنهـــم لـــم يشاهـــدوني عندمـــا وصلـــت.. لا أدري مـــا الـــذي يستحـــوذ عـــلى انتباههـــم، ويشدهـــم إلى جمـــوع الأعيـــان في القاعـــة..؟ ! ثمـــة شـــيء استقطـــب انتباههـــم وشـــل انتباههـــم وغيـــب عنهـــم لحظـــة وصـــولي..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لمـــا انتـــهى بنـــا السيـــر إلى الموضـــع المحـــدد للوقـــوف؛ أشـــار إليَّ ((**ظافـــر**)) بمكـــان وقـــوفي؛ حيـــث الصـــدارة والتوســـط.. وســـط أعيـــان الأعيـــان.. أصحـــاب الفضـــل والجميـــل الـــذي يطـــوق عنـــقي..

ــ لـــذا فمـــن الواجـــب الرضـــوخ للمتطلبـــات الضروريـــة؛ ومسايـــرة رغبـــات حلفـــائي الجـــدد..

ــ لا بـــد مـــن الوقـــوف كمـــا طلـــب مـــني ((ظافـــر)) ثـــم أنتظـــر.. هاهـــم الأعيـــان شرعـــوا في التقـــدم مـــني ومصافحـــتي واحـــداً بعـــد الآخـــر.. بـــدءاً بأقـــرب النـــاس مـــني..

ــ أووووف.. إنـــه عمـــل متعـــب، وشـــاق.. لقـــد صافحـــت آلاف الأيـــدي.. نعـــم آلاف.. منهـــا الأيـــدي النقيـــة؛ ومنهـــا الملوثـــة.. نعـــم ملوثـــة بأشيـــاء كثيـــرة.. لا أدري إن كنـــت سأتمكـــن مـــن تنظيـــف يـــدي بعـــد هـــذا..

المسرحيـــــة :

أووف.. مـــا هـــذه الأوراق.. هـــذا مستحيـــل؛ كيـــف أقـــدر عـــلى قـــراءة كـــل هـــذا..؟! لا يمكنـــني ذلـــك.. هـــذا يتطلـــب جيشـــاً مـــن المختصيـــن.. آاه.. سأطلـــب الجماعـــة.. فهـــم أدرى بكيفيـــة العمـــل.. لقـــد سبـــق لهـــم الاشتغـــال بهـــذا الأمـــر.. أيـــن زر الجـــرس.. آ آه هاهـــو..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ طـك.. طـك.. طـك..

ـ أدخـل..

نعـم سمـو الأميـر.. أنـا تحـت أمركـم..

ـ آ آ آه.. **((رابـح))**.. أيـن أصحابـك.. بقيـة الجماعـة..؟

ـ مـن..؟ **لزهـر**، و**ظافـر**..؟

ـ نعـم.. و**زغلـول** أيضـاً..

ـ فالكـل في أعمالهـم..

ـ ومـا هي أعمالهـم..؟ فأنـا لا أدري مـا هي أعمالهـم..

ـ **((زغلـول))** اختـار تسييـر مجلـس الأعيـان..

ـ هـو الـذي اختـار..؟

ـ لا.. أ أ أ.. عفـواً.. لقـد عينتمـوه بمرسـوم مـن طرفكـم..

ـ أنـا لـم أعيـن أحـداً.. ولـم أصـدر أي مرسـوم..

ـ أنـا رأيـت المرسـوم مسـاء أمـس.. وكـان بتوقيـع سموكـم.. لقـد كـان بيـن الوثائـق الـتي تفضلتـم بتوقيعهـا صبـاح أمـس..

ـ آ آ آه.. صحيـح.. لـم أتمكـن مـن قـراءة الوثائـق كلهـا؛ فاضطـررت إلى توقيعهـا؛ أمـلاً في استكمـال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مراجعتهـــا مـــن طرفـــك.. ألســـت أنـــت مديـــر مكتـــبي..؟ أم هنـــاك شخـــص آخـــر غيـــرك..؟

ـــ لي الشـــرف في تحمـــل هـــذه المهمـــة الشريفـــة..

ـــ لا علينـــا.. وأيـــن الآخـــر.. **((الزهـــر))**..

ـــ لقـــد تعيـــن كبيـــراً للوزراء..

ـــ عينتـــه أنـــا طبعـــاً..؟ طبعـــاً.. لا يمكـــن أن يعينـــه غيـــري..

ـــ آ آ آه.. إ إ إيـــيـــه.. نعـــم سمـــو الأميـــر.. وبمرســـوم أيضـــاً صـــدر مـــن مكتبكـــم الموقـــر.. صـــدر يـــوم أمـــس أيضـــاً..

ـــ ومديـــر التشريفـــات.. **((ظافـــر))**.. أيـــن هـــو..؟

ـــ لقـــد أرســـل مذكـــرة يعتـــذر فيهـــا عـــن غيابـــه.. أ أ أ.. يقـــول أنـــه مريـــض..

ـــ مريـــض.. مـــا هـــو مرضـــه..؟

ـــ إن ن ن ن.. لا أعلـــم يـــا ســـمـــو الأميـــر.. كـــل مـــا أعرفـــه أنـــه قـــال بأنـــه مريـــض..

ـــ هـــل هـــو غضبـــان..؟

ـــ إم م م.. لا أدري بالضبـــط.. يجـــوز..

ـــ لا يهـــم.. والآن.. دلـــني كيـــف أعمـــل بهـــذه الأكـــداس مـــن الأوراق..؟ فأنـــا لا أقـــدر عـــلى تصفحهـــا.. فهـــذا يتطلـــب وقتـــاً كبيـــراً وجهـــداً أكبـــر..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـــ قلــت هــذا لـــ((**لـــزهـــر**)).. فقـــال : إن لـــم يستطـــع سمـــو الأميـــر قـــراءة كـــل الوثائـــق فـــلا بـــد مـــن مساعدتـــه؛ وعـــلى هـــذا فأنـــا عـــلى استعـــداد لخدمتكـــم وتقديـــم العـــون لكـــم..

ـــ وكيـــف يمكـــن أن تعينـــني..؟

ـــ مـــا عليكـــم يـــا صاحـــب السمـــو إلا تفويـــض الأمـــر لي كتابيـــاً.. عندهـــا سأقـــوم بالواجـــب..

ـــ وكيـــف ستقـــوم بالواجـــب..؟

ـــ سأقـــوم بفـــرز الوثائـــق.. فالمهمـــة منهـــا أقدمهـــا ملخصـــة إلي سموكـــم؛ أمـــا التافهـــة، وعديمـــة الفائـــدة فـــلا أشغـــل وقتـــك الثميـــن بهـــا؛ وأحيلهـــا إلى مـــا يلزمهـــا..

ـــ أوووف.. المهـــم.. أنظـــر في هـــذه الأكـــداس مـــن الأوراق، وعالجهـــا بمـــا يصلـــح..

ـــ وثمـــة في مكتـــبي أكـــداس أخـــرى؛ هي في الانتظـــار؛ والمفـــروض أن أضعهـــا أمـــام سموكـــم غـــداً صباحـــاً..

ـــ آ آ آ آه.. ارفـــع عـــني هـــذا.. وتكفـــل بالأشيـــاء الأخـــرى.. لا أريـــد أشيـــاء فـــوق طاقـــتي.. حـــرر المرســـوم الـــذي يخـــول لـــك ذلـــك؛ ســـوف أوقعـــه فـــور إعـــداده.

ـــ بـــقي كذلـــك الأعمـــال الأخـــرى.. كيـــف ستتصرفـــون فيهـــا؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ أعمـــال أخـــرى..؟! مـــاذا تقـــول؟ أثمـــة أعمـــال أخـــرى..؟!

ـ نعـــم.. سموكـــم.. ثمـــة أعمـــال أخـــرى كثيـــرة؛ تدخـــل في اختصـــاص بقيـــة الجماعـــة.. وكلهـــا ستعـــرض عليكـــم لأخـــذ القـــرار النهـــائي فيهـــا..

ـ بقيـــة الجماعـــة..؟! أي جماعـــة تقصـــد..؟

ـ المجموعـــة الـــتي عينتهـــا في الوظائـــف والمهـــام الساميـــة في الدولـــة..

ـ آ آه .. تقصـــد زمـــلاءك.. **((الزهـــر))** و**((زغلـــول))** ..

ـ نعـــم.. وغيرهـــم مـــن الموظفيـــن الكبـــار.. مـــا أقـــول لهـــم..؟

ـ فليقـــم كـــل واحـــد بالـــدور الـــذي اختـــاره.. اتركـــوني في ســـلام..

ـ حاضـــر سمـــو الأميـــر.. خـــذ كـــل راحتـــك.. لا تهتـــم بأشيء.. نحـــن جميعـــاً في الخدمـــة.. في خدمتكـــم طبعـــاً..

ـ أووف.. أحـــس أن جبـــلاً قـــد أزيـــح عـــن كاهـــلي.. الحمـــد للـــه.. تخلصـــت مـــن كـــدس الأوراق هـــذا.. مـــالي وهـــذه الأوراق الـــتي لا يمكـــن قراءتهـــا في أسبـــوع كامـــل.. فكيـــف يمكنـــني ذلـــك في يـــوم واحـــد؟ كمـــا يقـــول **((رابـــح))**..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ فليسهر عليها.. ذاك هو اختصاصه.. فهو المكلف بالإشراف على كل ما يصل إلى مكتبي.. فتلك هي مهمته.. وهو يحب ذلك.. فليهنأ بما يحب، ويشتهي..

وحتى الآخرون.. لقد اختار كل واحد منهم ما يريده.. لا يهمني ذلك.. فليقم كل منهم بالمهمة التي اختارها.. إنهم يخففون عليّ ثقل المهمة.. وما عليّ سوى التمتع بما أحب وأشتهي.. نعم بما أشتهي.. ألم أعان طويلاً من الحرمان، والاضطهاد..؟ فمن حقي الآن الركون إلى الراحة، والتمتع بمباهج الدنيا.. فلأنتهز هذه الفرصة.. فرصة وجود معاونين أكفاء، وخدومين.. نعم فليهنأ بالي.. ولتستمر متعتي..

في القصر:

ـ آآآه.. ما أورع قصري هذا.. وما أبدع صنعه.. وما أبهج العيش فيه.. كنت سأرتكب حماقة لو رفضت عرض الجماعة.. سيكون مصيري ـ عندئذ ـ معروفاً.. سأبقى ـ طبعاً ـ كما كنت؛ في ذلك المنزل الكئيب، وتلك الغرفة اللعينة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ أ أ أف .. نجوت من كل ذلك.. نعم من كل شيء كرهته..

ـ لكني فُجِعْت في ((**راضية**)) المسكينة، ونُكِبْت في أولادي الصغار أيضاً.. لم أعثر عليهم.. ولم أتمكن من إحضارهم..

ـ ما ذا أفعل..؟ لقد اضطررت للزواج مرة ثانية.. الزوجة الثانية من طراز آخر.. تختلف كثيراً عن ((**راضية**)).. فهي مثل كل الأشياء البراقة في هذا العالم الجديد..

ـ لكنها لا تجيد الطبخ، ولا تهتم بعمل المنزل.. إنها كالتحفة الجميلة.. لا فائدة منها سوى بث المتعة بالجمال..

ـ إنها تزعجني ـ أحياناً ـ حين تتدخل في عملي.. أشعر ـ في بعض الأوقات ـ أنها تنافسني.. بل تحسدني أيضاً..

ـ لا علينا.. إنها تشبه بقية الجماعة.. فهي من عالمهم الغريب.. سأتركها وشأنها.. ولن أقف في طريقها.. فلتعمل ما يحلو لها.. يكفيني ما أنعم فيه من مباهج ومسرات..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الانهيـــــار:

ــ مــا هــذا..؟ مــاذا أسمــع..؟ هــل الــذي تقولــه صحيــح..؟ !

ــ للأســف نعــم.. صحيــح مــا قلتــه لسموكــم.. فالأمــر أصبــح خطيــراً.. فالكــل أضــحى يتآمــر عليكــم، وعلينــا..

ــ مــن هــم الكــل هــؤلاء..؟

ــ ((**زغلــول**))..

ــ ثــم مــن..؟

ــ أ أ أ.. ((**زغلــول**)) وأصحابــه..

ــ قلــت لي مــن قبــل ((**زغلــول**)).. ثــم مــن..؟

ــ أصحابــه، والمقربــون إليــه..

ــ أفصلهــا يــا ((**رابــح**)) لقــد أتعبتــني.. مــن هــم باختصــار..؟

ــ هــم كثيــرون.. لا يمكنــني إحصاؤهــم في هــذه اللحظــة ارتجــالاً.. ولكــن يمكنــني إعــداد تقريــر بذلــك..

ــ حسنــاً.. أحضــر لي التقريــر حــالاً.. لا يمكنــني الانتظــار طويــلاً..

ــ حاضــر.. سأتــولى إعــداده حــالاً.. اسمحــوا لي بالانصــراف..

ــ لــك ذلــك.. لا تطــل عــليّ..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ــ عجباً.. لم يعد في هذه الدنيا وفاء، أو إخلاص.. فهذا حليفي سرعان ما انقلب ضدي.. ماذا يريد..؟ ! ــ آ ا آه.. فهو يطمع في منصبي.. إنني أعرفه فلا يملأ عينيه شيء.. ولا يقنع إلا بمنصبي.. سوف نرى.. سأقيله من منصبه.. فليذهب إلى الجحيم..

لم أصبر طويلاً.. ولم أنتظر تقرير رابح.. إذ أحست بالخطر؛ فلم أتمالك نفسي؛ ثم سارعت إلى دق الجرس قائلاً:

ــ وما حاجتي للتقرير..؟ فأنا أعرف نواياه من قبل.. هه.. ليحضر ((**رابح**)).. فما الفائدة من التقرير..

ــ نعم سمو الأمير.. هل طلبتموني..؟

ــ نعم.. لا أحتاج تقريراً.. أكتب لي مرسوماً بتنحية ((**زغلول**)) عن مهمته..

ــ حاضر سمو الأمير.. إنه موجود.. لقد تركته فوق مكتبي..

ــ موجود..؟! كيف وجد..؟! هل أعطيتك أمراً بذلك..؟!

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ــ لا،، كنــت أعلــم يــا سمــو الأميــر أنكــم ستتخــذون هــذا القــرار.. فالأمــر خطيــر.. ولا مجــال للتسامــح.. إنــه يستهــدف شخصكــم المعظــم..

ــ لا يهــم.. هــات المرســوم لأوقعــه؛ وأنتــهي مــن المشكــل بحسمــه.. فــلا أتحمــل جيــوش القلــق..

ــ حــالاً.. سيكــون بيــن يديكــم الكريمتيــن.. في لحظــة..

ــ لــن أتسامــح مــع هــؤلاء الطامعيــن.. وسيلحــق ((**زغلــول**)) بالآخريــن.. ممــن منحتهــم ثقــتي؛ وتبينــت خيانتهــم..

ــ لا يهــم حــتى وإن كثــر عــددهــم، أو قــل.. فكــل مــن أشــك فيــه؛ يستحســن التخلــص منــه.. بهــذا ارتــاح مــن مشاكلهــم.. فأنــا لا أتحمــل القلــق، والضغــط النفــسي.. أ أ

ــ أوف.. ولكــن ســوف أفقــد خبــرات، وكفــاءات متعــددة بهــذا الفعــل.. سأخســر بذلــك كثيــراً مــن الخبــراء، والمسيريــن.. إن شكــوكي في النــاس كثــرت هــذه الأيــام..

ــ ومــا حيلــتي في ذلــك.. أأتركهــم يتآمــرون عــليّ..؟ لا لــن أدعهــم يفعلــون ذلــك.. عــليّ أن ((أتْغَــدَّى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِيهِمْ قَبل أنْ يَتْعَشُوا بِيَ))؛ كما قال ((**رابح**)).. فهو محق في هذا القول..

ـ ولكن هذا كثير؛ فمن ضحيت بهم كثيرون.. ضحيت حتى بأقرب الناس إليّ.. بزوجتي الوفية ((**راضية**)).. نعم بـ((**راضية**)) المُحِبَّة والمخلصة.. ضحيت بها في سبيل مظهر الإمارة ورونقها.. مع أنني عشت معها زمناً طويلاً؛ ولم أجد ما يعيبها..

ـ كيف أصبحت أميراً دون شريكتي في الحياة..؟! هل خانها الحظ، وحالفني أنا..؟

ـ هل كتب لـ((**مسعودة**)) أن تحتل المقام الذي حرمت منه ((**راضية**)) المسكينة..؟

ـ قالوا أن ((**مسعودة**)) تليق بالمقام..

ـ فما الفرق بين : ((**راضية**))، و((**مسعودة**))..؟! مع أنني أرتاح لاسم ((**راضية**)) كثيراً..

ـ لا يهم الآن.. حصل ما حصل.. وأتت ((**مسعودة**)) بدلاً من ((**راضية**)).. كل هذا في سبيل بقائي أميراً.. لا يهم.. فليذهب الجميع؛ وتبقى الإمارة.. لا يمكنني العودة إلى حياتي الأولى.. لن يحدث ذلك ولو انطبقت السماء على الأرض..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ فجماعتي الأوفياء، المخلصون لهم ما يحبون.. نعم.. كل ما يرغبون فيه؛ لا أمنعهم منه.. سأترك لهم التنفيذ؛ دون اعتراض.. المهم أن يخلصوا لي.. وأن يريحوني من المهام الصعبة..

ـ وما حاجتي بأولئك الذين جعلوا كل همهم في البحث عن المشاكل، والتباكي على الأوضاع..؟ فبعضهم يشتكي من سوء الأحوال الاجتماعية.. وبعضهم يبكي وينتحب على تراجع مستوى التعليم.. والآخرون يزعمون أننا ـ لا سمح الله ـ على أبواب أزمة اقتصادية.. إنهم مصدر شؤم، ومبعث طيرة.. أعوذ بالله منهم جميعاً.. لا يريحون، ولا يرتاحون.. همهم إثارة المشاكل..

ـ طك.. طك.. طك..

ـ أدخل..

ـ أحضرت لسموكم المرسوم..

ـ هاته..

ـ زززززز.... ددددددد.... رررررر..... غغغغغ..... زززززز...

ـ ما هذا..؟ إني أشعر بدور.. ما هذا الضجيج..؟ ما هذا..؟ تكلم.. ما هذا.. أهو زلزال..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أهــذا زلــزال.. أيــن أنــت يــا ((**رابــح**)) أيــن أنــت.. ساعــدني.. أرجــوك ساعــدني..

ــ آهــه هــرب اللعيــن؛ وتركتــني وحيــداً.. إذن؛ عــليَّ أن أهــرب بــدوري.. هــاااه..

إغـــــلاق الستـــــارة :

ــ آ آ آه.. يــا رأســي.. مــاذا..؟ ! ! أيــن أنــا..؟ ! أمعقــول هــذا.. أمعقــول مــا أرى..؟! مــاذا أرى..؟ ! ! هــذه غرفــتي..!! داري القديمــة..!! دار العائلــة..! !

ــ آ آآ ه.. لقــد سقطــت مــن السريــر.. سريــري الكئيــب.. عجبــاً..!! أيــن قصــري..؟! كيــف عــدت إلى هــذه الــدار اللعينــة..؟! كيــف..؟! حقــاً إنهــا غرفــتي..! وهــؤلاء هــم أولادي.. إنهــم مازالــوا نائميــن.. و((**راضيــة**)) أيــن هي..؟ أيــن يمكــن أن تكــون..

ــ أاااه.. يبــدو أنهــا خرجــت لتحضيــر القهــوة؛ كالعــادة.. لقــد بــزغ الفجــر..

ــ استغفــر اللــه.. لقــد طــال انتظــاري لــ((**راضيــة**)).. أيــن هي..؟ مــاذا جــرى..؟ ومــا هي الحقيقــة..؟ لقــد اختلــط الأمــر عــليّ..

ــ هــذا هــو الوقــت الــذي تعــودت الذهــاب فيــه إلى العمــل..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ وأي عمـل..؟! ((الفابريكـة)) طبعـاً.. عجبـاً..! ! لـم تحضـر ((**راضيـة**)).. لا بـد أن أستعجلهـا..

تحاملـت عـلى نفـسي ونهضـت بصعوبـة؛ ثـم فتحـت بـاب الغرفـة وناديـت:

ـ راضيـة.. راضيـة.. أيـن أنـت.؟ هـل تسمعيـن أسـرعي فوقـت العمـل داهمـني..

ـ غريـب..! لا أحـد يجيـب.. لا أحـد في المطبـخ.. ((**راضيـة**)) ليسـت هنـا.. إنها غيـر موجـودة في الـدار كلهـا.. يجـب استفسـار العائلـة.. نعـم العائلـة كلهـا..

نهضـوا جميعهـم؛ وفتشـوا مـعي في زوايـا الـدار كلهـا؛ دون أن يجدوهـا.. فانتابتـني حيـرة شديـدة..

ـ عجبـاً..!! كيـف هـذا..؟! لـم يجدوهـا.. أمـر غريـب..!! لا أثـر لهـا..!! لعـل أولادي يعلمـون بمكانهـا؛ لأنهضهـم.. لا وقـت للانتظـار..

ـ سعيـد.. محمـد.. ليـلى.. انهضـوا.. أيـن أمكـم..؟

س ـ لا أعلـم.. ربمـا في المطبـخ..

ـ ليسـت في المطبـخ.. أيـن تكـون..؟!

م ـ كانـت معنـا البارحـة.. لا أدري أيـن هي الآن..

ـ أ أخ.. أيـن هي..؟ لا جـواب لنـدائي.. لـم يعـد لهـا أثـر يذكـر..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لـــم يعـــد أمـــامي ســـوى الانتظـــار إلي مـــا بعـــد طلـــوع الشمـــس.. ليسهـــل علينـــا البحـــث عنهـــا، أو تخـــرج مـــن مخبأهـــا..

ــ لعلهـــا اضطـــرت للخـــروج مـــن الـــدار.. لـــن أذهـــب إلى العمـــل في هـــذا اليـــوم.. كيـــف أتصـــرف..؟ ومـــاذا أعمـــل..؟

لقـــد طـــال انتظـــاري دون جـــدوى.. ولـــم يظهـــر لـــ((**راضيـــة**)) أي أثـــر.. لقـــد أحسســـت بالقشعريـــرة تنتابـــني، وهاهـــو سيـــل مـــن العـــرق البـــارد يكســـو جســـمي.. إن هـــذا مخيـــف حقـــاً.. مخيـــف.. مخيـــف جـــداً..

ــ إني أخـــاف فقدانهـــا. ولكـــن مـــا حيلـــتي..؟ لـــم يبـــق أمـــامي ســـوى الشـــارع.. عـــلي أن أخـــرج للبحـــث عنهـــا..

لبســـت ملابـــسي، وخرجـــت باحثـــاً عنهـــا. وفي الطريـــق شعـــرت أن النـــاس يتهامســـون حـــولي.. نعـــم يتهامســـون.. فقلـــت لنفـــسي:

ــ لعلهـــم يعرفـــون مكـــان ((**راضيـــة**)).. وإلاّ فمـــا الـــداعي لهمسهـــم..؟

قصـــدت المقـــهى؛ لـــكي أتنـــاول فنجانـــاً مـــن القهـــوة المركـــزة؛ آمـــلاً أن تنشـــط ذهـــني مـــن جهـــة، ومـــن جهـــة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أخــرى كنــت أرغــب في فــك لغــز الهمــس الــذي يــدور حــولي أينمــا ذهبــت..

وممــا زادني حيــرة واستغرابــاً أنــني بمجــرد دخــول المقــهى؛ انتفــض النــاس، وانسلــوا منهــا؛ واحــداً بعــد الآخــر.. ومــع هــذا فقــد سمعــت أحدهــم يقــول لصاحبــه:

ــ هــذا هــو الأميــر.. فأجابــه الآخــر:

ــ مسكيــن..!! أصبــح هكــذا.. بعــد النكبــة..

ــ مــا هي هــذه النكبــة الــتي يتحدثــون عنهــا..؟ وهــل حقيقــة أنــا أميــر..؟ وإن كنــت كذلــك فأيــن هي تلــك الإمــارة..؟! هــل هي حقيقــة..؟!! إذن؛ كيــف وجــدت نفــسي في غرفــتي القديمــة..؟!! مــا هي الحقيقــة يــا تــرى..؟!! مــا هي الحقيقــة..؟!!

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخلـــل

في جولـــة لي بشوارع العاصمـــة؛ هـــذه المدينـــة البيضـــاء الرائعـــة؛ الـــتي كللـــت ذات يـــوم بتـــاج البحـــار.. وتربعـــت عـــلى عـــرش البحـــر الأبيـــض المتوســـط.. ذلـــك البحـــر الـــذي تطـــل عليـــه كعـــروس فاتنـــة؛ بخلجانهـــا الرمليـــة الناعمـــة، وأذرعهـــا الخلابـــة الممتـــدة في أعمـــاق البحـــر.. تلـــك الأذرع والرؤوس الصخريـــة الـــتي تذكـــر مـــن يشاهدهـــا بعهـــد الجزائـــر الذهـــبي؛ ذلـــك العهـــد الـــذي عرفـــت خلالـــه هـــذه المدينـــة أعظـــم أيامهـــا؛ واحتلـــت مرتبـــة السيـــادة المطلقـــة في هـــذا البحـــر العتيـــق بـــلا منـــازع.. إذ خصتـــه بحمايتهـــا ورعايتهـــا وهيمنتهـــا الشاملـــة..

غيـــر أن مـــا يحـــز في نفـــسي الآن هـــو أن هـــذه المدينـــة ــ ذات المجـــد الراســـخ في التاريـــخ ــ لـــم تعـــد كسابـــق عهدهـــا الزاهـــر؛ بـــل فقـــدت جـــل رونقهـــا وجمالهـــا القديـــم؛ وضيعـــت معظـــم سحرهـــا الأزلي الجـــذاب.. لـــم تعـــد تتحـــلى بالانسجـــام الاجتمـــاعي الطبيـــعي والتقليـــدي في: محيطهـــا، ودورهـــا، وشوارعهـــا، وأسواقهـــا؛

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحتى سكانها.. إذ أضحت ملاذاً ومقصداً لكل من هب ودب، وأثنى وسب..

ونتيجة للتكدس السكاني المتراكم، والمزج العشوائي للعادات المتنافرة؛ ذات التركيب السمج؛ تعرضت المدينة لخلل مس توازنها، وخَلْخَلَ الحركة الاجتماعية بها، وشوه الطابع العمراني والثقافي التي كانت تتميز به عبر السنين..

لقد كانت هذه المدينة ــ في سابق عهدها ــ تشتمل على عدد محدود من السكان المحافظين على طابع ثقافي متميز.. أهم ما يميزه هي الوحدة والانسجام.. نعم وحدة الشكل والمحتوى؛ وانسجام التقاليد والعادات.. وعلى الرغم من ظهور بعض السلبيات؛ المتمثلة في انغلاق سكان المدينة على أنفسهم؛ إلا أنهم كانوا متفتحين على محيطهم البحري؛ دون أن تغرقهم أمواجه في أعماقه، أو تذيبهم مياهه كما تذوب قطعة السكر في كوب من الماء.. حتى وإن ضاق مجتمعهم وتقلص.. فقد كان يتحلى بالانسجام التام في الميادين كلها تقريباً: في الحياة الثقافية، والمعاشية، وفي السلوك، والعادات..

غير أن هذا الأمر انتهى الآن؛ إذ أصيبت المدينة بداءي: الاكتظاظ والتشوه.. الاكتظاظ البشري، والتشوه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في المحيط.. فسكان المدينة الآن يتشكلون من فئات متنوعة، وألوان متباينة؛ منهم الحضر، ومنهم البدو، ومنهم الريفيون.. فوصلت بذلك هذه المدينة إلى حد الاختناق بالمارة والمتسكعين من الجنسين.. وبمختلف الألوان والصفات المتنافرة..

نعم.. هذه هي مدينة الجزائر التي سميت بالبيضاء منذ زمن بعيد.. لقد تشوقت هذا اليوم للسياحة في أرجائها؛ والتجول في شوارعها.. وبينما كنت أتأمل فيما تعرضه واجهات المتاجر من ملبوسات، ومأكولات؛ إذا بي أقف وجهاً لوجه أمام صديق لي قديم؛ مرت علنا سنوات دون أن نتقابل. فكانت لحظة سارة؛ ومناسبة طيبة حركت فينا عبارات الأشواق والتحيات الحارة المتدفقة، والكلمات المفعمة بالحب والسرور.. فانهلنا على بعضنا بسيل من الأسئلة والاستفسارات عن: الأحوال والأعمال..

وبعد تبادل التحية والسلام، والتراشق بجميل القول والكلام؛ غرقنا في حلاوة الذكريات الماضية، ونسينا ما يحيط بنا من حقائق واضحة.. فوقوفنا في الطريق أزعج المارة وأحرجهم، وابتلاهم بالضيق والازدحام، ومنع عنهم حرية الحركة في الرصيف على ما يرام.. فانتبه صديقي بعد هنيهة لحالنا؛

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حينما أزاحه أحد المارة الغلاظ ـ بشدة وعناد ـ عن خط سيره؛ الذي أبى إلا أن يكون مستقيماً؛ رافضاً بذلك اللف والدوران حول أشباه الحيطان.. عندها عرض عليّ صديقي رغبته في تناول فنجان قهوة بإحدى المقاهي القريبة؛ وما أكثر المقاهي في عاصمتنا الحبيبة..

فلبيت طلبه حالاً؛ إذ وجدت في دعوته عاملاً مساعداً في التغلب على الفراغ بفارغ القول والكلام.. وسارعت إلى جذب صديقي من ذراعه نحو المقهى القريب منا؛ ووقفنا أمام موائدها المتناثرة على ذلك الرصيف العريض؛ نبحث عن موطئ قدم، أو مكان نجلس فيه؛ ولكن خاب سعينا؛ إذ لم نجد ما نجلس عليه؛ فمقاعد المقهى جميعها كانت تئن من ثقل الجالسين، وتشكو طول مكوثهم عليها دون حراك..

يبدو أن أعداد الكسالى والعاطلين تزايدت في هذه الأيام.. وبالمقابل فإن ثقلهم يزداد أيضاً بتتابع واطراد؛ كلما ازدادوا كسلاً وعطلة؛ لأنه كلما تناقصت قوة الروح، وتقلص حجمها في أجسامهم ازدادوا ثقلاً ورسوخاً.. وبهذا يمكننا تفسير ثقل وزن الجثث التي فارقتها الروح نهائياً.. ولما يئسنا من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجـــود موضـــع يمكننـــا الجلـــوس فيـــه؛ اتجهنـــا إلى مقـــهى آخـــر مجـــاور لـــلأول؛ فلـــم نجـــد أيضـــاً مقاعـــد شاغـــرة فيـــه؛ فانتقلنـــا إلى مقـــهى ثالـــث.. ورابـــع.. وخامـــس.. وهكـــذا.. فكـــل المقـــاهي مليئـــة بالـــرواد والمدمنيـــن عليهـــا في هـــذه البـــلاد.. ومـــا أكثـــر رواد المقـــاهي في الجزائـــر الحاليـــة..

وبعـــد أن أضنانـــا البحـــث والتنقيـــب؛ دون جـــدوى؛ انتبـــه صديـــقي إلى طريقـــة بارعـــة في اصطيـــاد المقاعـــد؛ وهـــذه الطريقـــة كانـــت متبعـــة مـــن قبـــل جـــل رواد المقـــاهي في هـــذه المدينـــة.. وتتمثـــل تلـــك الطريقـــة في الوقـــوف قـــرب موائـــد المقـــاهي ومقاعدهـــا المحجـــوزة فتـــرة مـــن الزمـــن ــ قـــد تطـــول أو تقصـــر؛ إذ لكـــل واقـــف حظـــه، ولكـــل شاطـــر صيـــده ــ وعندمـــا تبـــدو بـــادرة تشيـــر إلى نهـــوض بعـــض الجالسيـــن عـــن مائـــدة مـــا؛ يتحفـــز الواقفـــون للوثـــوب عليهـــا، واختطـــاف الكـــراسي الـــتي حولهـــا.. ولا ينجـــح في هـــذه الحركـــة إلا أصحـــاب اللياقـــة البدنيـــة الفائقـــة، وأهـــل النفـــوس الماكـــرة..

ونظـــراً لجهـــلي بشـــروط هـــذه المسابقـــة الإجباريـــة ــ خاصـــة وأنـــا لســـت رياضيـــاً؛ إذ كنـــت في صغـــري بالمدرســـة مـــن المهزوميـــن باستمـــرار في ((لعبـــة الكـــراسي الموسيقيـــة)) ــ فـــإني حاولـــت برزانـــة مصطنعـــة، وحركـــة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بطيئة فاترة؛ أن أصل إلى مائدة كانت مجاورة لنقطة وقوفنا؛ غير أنني فوجئت بسيدين كانا مموهين بوشاح الوقار الكاذب يسرعان قفزاً، وجرياً إلى تلك المائدة اليتيمة؛ فوصلا إليها قبل وصولي؛ بحكم نشاطهما المتزايد، واستخفافهما بكل واقف وقاعد..

ولاحت لي فرصة أخرى بعد فترة؛ فأعدت الكرة؛ مع حرصي على الزيادة في سرعتي؛ تلك السرعة التي اضطررت إلى تطويرها نوعاً ما؛ ومع أني وصلت إلى هدفي؛ إلا أنني لم أصل وحيداً؛ إذ أن ثمة من وصل معي في اللحظة نفسها.. فنظر إليّ بعينين حادتين متحديتين؛ ثم قال بعد أن أمسك أحد المقاعد:

ـ أنَا أسْبَقْتَكْ..!! أُوصَلْتْ قَبْلَكْ..!!

فطأطأت رأسي اتقاء شر نظراته الحارقة، وعدت أدراجي؛ أجر أذيال الخيبة والفشل.. ولما تعددت محاولاتنا، وتكررت هزائمنا؛ تفتق ذهن صديقي عن فكرة أنقذتنا من الورطة التي وقعنا فيها.. إذ عرض على أحد الصبيان ـ المتسكعين حول المقهى ـ منحهم بعض الدراهم؛ في مقابل كسب مسابقة الكراسي.. وقبل الصبي العرض المغري بسرور وحماس.. فقد سقطت عليه منحة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من السماء؛ لم يكن ينتظرها.. فلن يبذل جهداً كبيراً مقابل ذلك الأجر السخي.. وكان بالفعل حصاناً سباقاً.. إذ حجز لنا طاولة بأربعة مقاعد في زمن قياسي.. فالقاعدة المربحة هنا هي قلة الحياء؛ والجرأة في مواجهة الآخرين..

ولم تنتهي المفاجآت المزعجة في هذه المقهى عند هذا الحد.. فما أن جلسنا في مقاعدنا؛ وقبل أن نستعيد أنفاسنا؛ من جراء عقوبة الوقوف والترقب أمام (الطاولات)؛ حتى ظهرت مشكلة أخرى؛ أكثر تعقيداً وإيذاء.. لقد بدأ أصحاب ((السلام عليكم))..
يتساقطون علينا من كل حدب وصوب.. وما هي إلا لحظات قصار حتى أصبح الجالسون حول مائدتنا (من المعارف ومعارف المعارف) يتجاوز العشرة..

وهكذا.. استهلك الوقت في قيل وقال، وسخافات تجلت بالجدال؛ عن قلة الريع وندرة المال.. وضيق النفس وسعة الأفواه وتكاثر العيال، وقلة الحيلة واستفحال الطغيان، وغياب الخير الإحسان.. وكان بين الجالسين: ساخطون، ومتزمتون، وشامتون، ومتمردون، وأصحاب أغراض وإشاعات طائرة، وفنون في الدعايات ماكرة.. كانوا في معظمهم يعزفون على أوتار أجنبية، ونغمات ذات نشاز فظيع لا يرام..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكانت تعلو ـ أحياناً ـ أصوات ونغمات شرقية؛ غير أن العزف المطلق كان يسمع بطبوع غربية.. المهم.. أنها تعكس لمسات شيطانية، تلبس أثواباً وأوشحة بالبراءة والصراحة مسمية..

ولما وجدت أن الجالسين قد أصبحوا كالجبال الراسيات؛ ثقلاً علينا؛ وأحسست كأنهم جالسون على كاهلي؛ بدلاً من مقاعد المقهى التي أرثي ـ في الحقيقة ـ لحالها، وأقدر الآلام التي تعانيها؛ من ثقل تلك الجثث المتحركة.. عندها نظرت إلى صديقي نظرة فيها مغزى.. ففهم على الفور؛ وكأنه كان ينتظر إشارتي، أو كاد أن يتصرف مثلي فسبقته.. لأنه كما يبدو عانى المعاناة نفسها؛ في تلك الجلسة المتعبة..

نهضنا مودعين؛ دون أن نعرف شيئاً من الراحة في تلك الجلسة، ودون أن نتناول شيئاً في ذلك المقهى.. كما أننا حرمنا من حرية الكلام مع بعضنا بعضاً.. هربنا بجلدنا؛ حفاظاً على نقاء عقلينا وطهارة نفسينا.. فذاك المحيط شديد التلوث كثير الخطورة.. لقد عقدتنا تلك التجربة.. لذا كنا كلما ابتعدت بنا خطواتنا نسترق النظر إلى الخلف؛ خوفاً من التلوث والعدوى؛ خاصة إذا ما حاول أحد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أولئك المرضى اللحاق بنا.. وفي الطريق سألني صديقي:

ـ ما رأيك فيما سمعته من أقوال وإشاعات؛ ذكرها جلساؤنا..؟

ـ رأيي فيهم، وفي أقوالهم ما قاله الشاعر العربي:

ومن يجعل المعروف في غير أهله
يكن حمده ذماً عليه ويندم

ـ ولكن.. ألا ترى معي أن في هذا البيت غلواً وتطرفاً وصل إلى حد التشوه والخلل الخلقي..؟ أليست هذه دعوة إلى التوقف عن عمل الخير..؟

ـ كلاَّ.. ولكن الشاعر هنا يفسر واقعاً اجتماعياً، وظاهرة ملموسة. فإذا كانت هذه الظاهرة لا تنطبق على الناس كلهم؛ فليس معنى ذلك أنها لا تنطبق على كثير منهم.. وأمثال هؤلاء موجودون في كل مكان؛ وهم مصدر أذى لأنفسهم، لأوطانهم، ولشعوبهم.. ونحن لسنا في منعة من شرهم، ولسنا محصنين ضدهم.. فمن بين هؤلاء يوجد: المتنكرون لأوطانهم، والجاحدون للمكاسب والفوائد والخيرات التي تنعموا فيها وبها.. والمتناسون للآلام والتنكيل والقهر

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الـــذي سلـــط عليهـــم وعـــلى شعبهـــم يومـــاً مـــا.. لقـــد نـــسي هـــؤلاء وأمثالهـــم مـــن أبنـــاء الشعـــب المقهـــور أيـــام التعســـف والظلـــم والتهميـــش.. أيـــام الفقـــر والبـــؤس والضيـــاع.. كمـــا نـــسي أولئـــك الجاحـــدون ســـوء حالهـــم، وســـواد آمالهـــم، وانحطـــاط شأنهـــم، وحرمانهـــم وحرمـــان عيالهـــم.. ونـــسي أولئـــك الناكـــرون أيـــام العـــذاب والحـــرب والتنكيـــل.. نســـوا شبـــح الدمـــار والمـــوت الـــذي كـــان لا يفارقهـــم لحظـــة؛ إذ لازمهـــم كظلهـــم.. نســـوا أنهـــم لـــم يكونـــوا يطمعـــون حـــتى في الحيـــاة والبقـــاء بيـــن أبنائهـــم وأهلهـــم.. وبعـــد زوال الرعـــب والخـــوف.. وبعـــد القضـــاء عـــلى طغيـــان الفقـــر والضيـــق؛ نجدهـــم الآن يتذمـــرون ويتنكـــرون.. نعـــم نجدهـــم يشنعـــون ويشتمـــون ويتبجحـــون؛ لأن سلعـــة مـــا مفقـــودة، وشهـــوة مـــا مقموعـــة..

ــ هـــذا صحيـــح؛ ولكـــن ليـــس إلى هـــذا الحـــد.. وليـــس كـــل معتـــرض ناكـــر.. ولا كـــل معـــارض جاحـــد.. لا يصـــح الخلـــط بيـــن المعارضيـــن المخلصيـــن؛ وبيـــن المتآمريـــن.. فـــرب إصـــلاح يـــأتي مـــن معتـــرض أو ثائـــر.. ومـــع هـــذا.. فأنـــا لا أنـــفي وجـــود عناصـــر تنتـــمي إلى مـــن صنفتهـــم؛ مـــن الفئـــات الضالـــة المضللـــة..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ ألا تـرى مـعي يـا صديـقي المنجـزات الجبـارة الـتي تـم إنجازهـا، أو الـتي هي في طريـق الإنجـاز عبـر الوطـن..؟ ألا تتخيـل مستقبـل بلادنـا العظيـم؛ مـن جـراء السياسـة الحازمـة الـتي اتبعـت في بلدنـا، وزكيـت مـن قبـل شعبنـا العظيـم..؟ أكانـت بلادنـا فيمـا مـضى كمـا هي عليـه الآن مـن تقـدم وتطـور في مجـالات الحيـاة جميعهـا..؟ كيـف لا يحمـد أولئـك الجاحـدون فضـل بلادهـم..!؟ وكيـف يتعامـون عـن الحقيقـة ويتجاهلـون واقعهـم العظيـم..!؟

ـ لا تبالـغ يـا أخي العزيـز في حماسـك الجيـاش.. فلكـل جـواد كبـوة.. فـإذا كـان جـل مـا قلتـه صحيحـاً؛ فـلا يعـني ذلـك أننـا بـدون أخطـاء.. لـذا فـلا حـرج في ذكـر عيوبنـا؛ حيـن تتوفـر نيـة إصلاحهـا.. كمـا أنـه يتعـذر علينـا القيـام بالتصحيـح والترميـم إذا مـا جهلنـا عيوبنـا، ومواقـع ضعفنـا، وأسبـاب الزلـل فينـا.. أنظـر إلى الطبيـب؛ أي طبيـب؛ فهـو مجبـر عـلى معرفـة جنـس المـرض؛ لـكي يستطيـع تقديـم العـلاج الناجـع.. وعليـه فليـس كـل مـا قيـل في مجلسنـا ضـلال وبهتـان.. وأنـا معـك أن بعضهـم حـاول استغـلال نقـاط الضعـف لتحقيـق أغـراض مـا؛ ولكـن آخريـن قالـوا الصـواب..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ اسمح لي.. أنا لا أوافق على هذا الطرح المتساهل.. أنت ـ كما يبدو ـ لا تعرف طبيعة هؤلاء البشر.. ليس من أهدافهم الإصلاح كما تعتقد.. لا.. بل هم ضد كل توجه نحو استقلال بلدهم التام عن القوى العظمى.. فوائدهم تأتيهم من داخل البلاد وخارجها.. يأكلون بملعقتين.. لذا يصدق فيهم ما قلته يوماً:

كل طير ظل يرعى في المزابل

لا يربى ضمن أقفاص الذهب

ـ هذا منتهى القسوة.. إذن فأنت لا تثق قطعاً في إمكان تربية وإصلاح من ضلت به السبل..؟!

اسمح لي يا أخي العزيز هذا تشاؤم شديد.. وتحيز مفرط.. وتطرف غريب..

ـ أبداً.. أرجو أن يطول صبرك معي كي أقص عليك قصة لكي تعتبر..

ـ هات ما عندك.. فقد اشتقت إلى سماع طرائفك وقصصك..

ـ ألا تعرف قصة (بُو خَلُّوطْ وَبِيرْ قَدَّاشَهْ)..؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ أبـداً.. لا أعرفهـا؛ ومـا هي تفاصيـل تلـك القصـة..؟

ـ كـان فيمـا كـان؛ منـذ حقبـة مـن الزمـان، رجـل بقريـة قداشـة.. فقيـر عريـان، ومعـدم جوعـان؛ يتسـول أمـام كـل دار ودكـان؛ ويستجـدي لقمـة العيـش عنـد (البييـان)، وينـام في الشـوارع تحـت الحيطـان.. وكـان هـذا المسكيـن طيـب النفـس أميـن؛ مـداوم عـلى الصلـوات الخمـس مقيـم؛ يصـلي ضمـن الجماعـة، في مسجـد القريـة كالساعـة.. حيـن يـأتي وقـت (الغَـدَاءْ)، وتحـل فتـرة العشـاء؛ يجـول ويسـعى (بِقِدْرَتِـهِ) السـوداء، بيـن الديـار والأحيـاء.. سائـلاً صدقـات القـوم، ممـا يأكلـون في ذلـك اليـوم.. يصـب الطعـام فـوق الطعـام؛ في خلطـة ليـس فيهـا ذوق ولا انسجـام.. سماهـا النـاس ((بُوخَلـُّوطْ))؛ لأنهـا مـرق بملـح، وثريـد بفلفـل، وسلطـة بخـل، ومحليـات بسكـر؛ هـذا فـوق هـذا.. متراكـم مخلـوط؛ فسميـت عنـد القـوم ((بُوخَلـُّوطْ)).. يأكـل المسكيـن الخليـط بشهيـة عجيبـة، ويـأبى تبديـل طبعـه بشـدة غريبـة.. وبعـد تنـاول الطعـام؛ يسـعى لبئـر ماؤهـا لا يـرام.. فيرتـوي مـن مائهـا؛ إذ يشتـهي مذاقهـا.. كانـت البئـر مـرة في طعمهـا، رديئـة في لونهـا.. وكلمـا انتـهى مـن وجبـة الطعـام وشربـه للمـاء في سـلام؛ يـوضـأ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قبل الوقت، ويدخل المسجد في صمت وخشوع.. فيلتقي مع الإمام؛ الذي يحب فيه صدقه وزهده؛ وحسن أخلاقه..

وذهب إمام مسجد قداشة ــ ذات يوم ــ إلى قرية نائية؛ في زيارة لبعض أقربائه؛ وهناك اتصلت به امرأة من أقاربه؛ ترملت؛ وكانت ذات مال ويسر كبيرين؛ إذ أنها استفادت من إرث تركه لها زوجها الهالك؛ مع أنها في الأصل كانت بدورها غنية جداً.. فتمنت على الإمام أن يساعدها كي تحفظ دينها، وتستر حالها؛ بالعثور على زوج صالح، ومتدين، وفقير.. ففكر الإمام ملياً؛ ثم قال لها:

ــ طلبك موجود؛ ولكنه فقير معدم.. ولا عمل له.. يعيش على صدقات الناس؛ مع أنه رجل صالح ومتدين..

ــ لا يهمني فقره؛ بل أفضل أن يكون فقيراً؛ لا أهل له ولا أصحاب.. المهم عندي الخلق الطيب، والسلوك الحسن، والتدين..

ــ إذن.. على بركة الله.. فلن تجدي خيراً منه حسب هذه الشروط..

ولما عاد الإمام إلى قداشة اتصل بذلك المسكين المتسول؛ وعرض عليك فكرة الزواج؛ فلم يمانع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المسكين في هذا الأمر؛ لأنه لم يكن ينتظر عرضاً مغرياً كهذا حتى في الحلم.. بل كان يعتقد أنه سيبقى أعزباً إلى يوم موته؛ لأن الزواج ليس أمراً سهلاً بالنسبة لمعدم مثله.. لذا فقد قبل دون تردد.. وبالفعل تم الزواج؛ ولكن بشرط واحد من المرأة الثرية؛ وهو أن تكون العصمة في يدها.. فكان لها ذلك.. ومرت الأيام وهو في هناء عظيم، وعيش كريم، ونعيم عميم.. كانت المرأة الوفية توفر له كل ما يحتاجه، وتعمل جهدها لإسعاده وإرضائه.. لا يأكل من الطعام إلاَّ كل طيب وشهي، ولا يشرب إلاَّ الأشربة اللذيذة السائغة، ولا يلبس إلاَّ كل ناعم طري، ولا ينام إلاَّ على الأفرشة الفخمة الوثيرة.. ومع مرور الوقت أخذ ذلك الزوج المدلل المسكين يتململ، ويتأفف، ويتأوه؛ ثم يردد بين الحين والآخر:

ـ إيه إيه.. ((لاَ شَبْعَهْ مِنْ بُوخَلُّوطْ، وَلاَ رَيَّهْ مِنْ بِيرْ قَدَّاشَهْ))..

وأكثر من ترديد تلك العبارة؛ خاصة عندما تضع زوجته الطعام أمامه.. فاندهشت الزوجة؛ وكانت كلما سألته عن هذه الأشياء التي يشتهيها يصمت ولا يجيبها.. وتمنت بينها وبين نفسها لو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

استطاعت توفير ما يرغب فيه زوجها ويحب امتلاكه؛ ولكنه لا يفصح عن رغباته.. وبقيت الزوجة على تلك الحال؛ في الوقت الذي كثر فيه تأفف زوجها، وتشوقه للذي يشتهيه؛ دون أن يفصح عنه..

وبعد مرور سنة؛ قدم الإمام من قداشة لزيارة أهله كالعدة.. فانتهزت الزوجة الفرصة؛ وسألته عن مغزى العبارة التي يرددها زوجها؛ فأجابها الإمام باستغراب وحيرة:

ــ إنه يتشوق للطعام الذي تعود عليه؛ وهو عبارة خليط ومزيج من الأطعمة المتنافرة؛ التي كانت تمنح له أثناء تسوله؛ فيخلطها كلها داخل وعاء واحد ويأكلها.. فتسمى تلك الأكلة ((بُوخَلُّوطْ)).. أما ((بِيرْ قَدَّاشَهْ))؛ فهي بئر ماء؛ لم يكن يشرب منها إلا هو؛ بسبب ملوحة مائها، ومرارة طعمه..

ولما علمت الزوجة الطيبة قصة زوجها المسكين الشاذ؛ استدعته أمام الإمام؛ وقالت له:

ــ لقد علمت أخيراً سبب عذابك وحرجك.. أنت حر الآن؛ اذهب إلى قداشة وبئر مائها؛ واشرب منه حتى تروى؛ والتقط من المنازل ما تسميه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

((بُوخَلــُّوطْ))؛ واشبــع منــه حــتى تصــاب بالتخمــة.. فأنــت طالــق..

قــال صديــقي ضاحكــاً:

ــ حكايــة طريفــة حقــاً.. لهــذا تأثــرت وقلــت هــذا البيــت:

كــل طيــر ظــل يرعــى في المزابــل

لا يربــى ضمــن أقــفــاص الذهــب

ــ بالفعــل.. ويصــح فيــه أيضــاً مــا قالــه الشاعــر العــربي:

إذا أنــت أكرمــت الكريــم ملكتــه

وإن أنــت أكرمــت اللئيــم تمــردا

وهــذا مــا ينطبــق عــلى أولئــك المتنكريــن والجاحديــن لمــا قدمتــه لهــم بلدهــم.. فلــم يحمــدوا النعمــة الــتي هــم عليهــا؛ وتناســوا حيــاة الــذل، والجــوع، والقهــر.. إنهــم يتشوقــون لطعــام مثــل ((بوخلــوط))، وشربــة مــاء مــر المــذاق..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخيبـــة

يعتبـــر المـــشي عـــلى الأقـــدام ــ في مدينـــة الجزائـــر ــ أحـــد الأفعـــال المرهقـــة؛ الـــتي تضـــني الراجليـــن، وتؤلـــم مفاصلهـــم.. فتضاريـــس المدينـــة ليســـت في مستـــوى واحـــد، أو عـــلى درجـــة ارتفـــاع متساويـــة.. لـــذا فالمتجـــول عـــلى أقدامـــه في هـــذه المدينـــة؛ يجـــد نفســـه ــ في حـــالات كثيـــرة ــ مضطـــراً إلى القيـــام بحركـــات رياضيـــة؛ وتسلـــق سلالـــم قـــد تصـــل مراتبهـــا إلى التسعيـــن أو أكثـــر.. كمـــا أنـــه لا يسيـــر ــ دومـــاً ــ في طريـــق ســـويّ، مستقيـــم.. بـــل يمـــر في شـــوارع وأزقـــة ملتويـــة؛ صاعـــدة إلى الأعـــلى، أو نازلـــة بالماشيـــن إلى أخفـــض درجـــة؛ بحيـــث تلامـــس صفحـــة المـــاء؛ عـــلى شـــاطئ البحـــر المتوســـط..

ولا تقتصـــر معانـــاة السيـــر في الجزائـــر عـــلى البشـــر فحســـب؛ بـــل تعـــاني مـــن تلـــك المشـــاق حـــتى الآليـــات؛ ســـواء كانـــت سيـــارات أو دراجـــات أو وسائـــل أخـــرى.. فزحمـــة الماريـــن والمتسكعيـــن تخنـــق الشـــوارع؛ وتعرقـــل حركـــة المـــرور بهـــا. وقـــد يصـــل الحـــال إلى حـــد التوقـــف أحيانـــاً.. لـــذا أصبـــح كثيـــر مـــن أصحـــاب السيـــارات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يفضلون عذاب المشي على الأقدام؛ بدلاً من التنقل بسياراتهم داخل المدينة..

وعلى الرغم من كون المشي على الأرجل يعد من الأعمال الشاقة غير المستحبة؛ فهو ـ مع ذلك ـ يحقق شيئاً من المتعة وراحة الأعصاب؛ على الرغم من التعب العضلي؛ الذي يمكن تصنيفه ضمن الحركات الرياضية..

لهذا كله؛ فقد شعرت بضيق شديد ينتابني؛ حينما كنت أمشي مع صديقي عمر؛ على أرصفة الجزائر، وفي شوارعها المزدحمة بأمواج بشرية؛ يصعب فهم من أين تجيء وأين تروح.. وعليه فقد كنا نشق عبابهم الدافق بصعوبة ملحوظة؛ الأمر الذي صعّب علينا محاولة تبادل الحديث في تلك الظروف الخانقة؛ إذ يدخل ذلك في سياق العبث. لأن الكلام بتسلسل، وانسجام في الأفكار، وسلامة في المنطق؛ لن تتوفر شروطه أثناء السير المتعثر،،

إذ يضطر الإنسان ـ في غالب الأحيان ـ إلى قطع الحديث فترة من الزمن؛ الأمر الذي ربما مسح الفكرة من ذهنه؛ وأنساه تسلسل الحديث الذي توقف عنده منذ لحظة.. لذا فقد كان كلامنا متقطعاً؛ تفصله فواصل ومراحل زمنية. بينما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اضطررنا إلى التركيز ـ بشكل ـ أدق على الجموع البشرية؛ التي تكاد أن ترمي بنا أرضاً؛ كي تنال منا الأقدام دوساً ورفساً.

وهذا ما تفسره الدهشة المتزايدة التي تنتاب زوار مدينة الجزائر. فذلك المشهد المثير لأولئك البشر المختنة بأمواجهم العاصمة؛ من خلال شوارعها ومقاهيها المزدحمة التي لا تعد ولا تحصى؛ لا يجد لها زائر الجزائر مسوغاً أو تفسيراً معقولاً؛ اللهم إلا اعتبار ذلك كظاهرة سلبية مرضية؛ تبرز حجم البطالة في المجتمع..

أصبح كل شيء متعب في هذه المدينة.. ولا يقتصر ذلك على السير في شوارع المدينة فحسب؛ بل يعاني سكانها ـ أيضاً ـ عند التسوق في الأسواق، وحين التنقل في الحافلات العمومية، وفي السعي إلى حجز سيارة أجرة.. وحتى الجلوس في مقاهي الجزائر؛ يعتبر من الأفعال المتعبة، والمضنية.. فلا خدمات تسر، ولا معاملات تفرح، ولا مشروبات تنعش، ولا متعة تنتظر، ولا أشكال تبهج، ولا أصوات تطرب.. بل يعتبر الجلوس في تلك المقاهي خطيئة من الخطايا، والبقاء فيها يبعث على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السآمة والملل.. وقد يبعث على الشلل العقلي، وضحالة الفكر، وعقم الذوق والحس..

كما أن المثقف في الجزائر لا يجد محيطه المثالي؛ الذي يمكن أن يتنفس فيه.. ولا يعثر على المجالات الحيوية التي قد تساعده في البذل والعطاء، وتفجير طاقة الإبداع والابتكار فيه.. لذا فقلة النوادي في هذه المدينة أمر ملحوظ؛ لا يمكن إنكاره أو التغاضي عنه.. وحتى إن وجد ما يمكن إدخاله ضمن مفهوم النوادي؛ فلا حياة في تلك الهياكل.. ولا حركة يمكن وصلها بالثقافة وألوانها.. فتلك الهياكل لا تقوم بوظيفتها كما هو مستحب؛ بسبب سوء تسييرها من جهة؛ وعدم بلورة روح النادي؛ لدى مسيريها ورواده من جهة أخرى..

فكل هذه الظواهر والعوامل؛ جعلت صديقي عمر يقترح عليّ مرافقته إلى منزله؛ للتعرف عليه من ناحية، وكسب بعض الوقت الهادئ لمواصلة حديثنا من ناحية أخرى؛ ولبيت دعوة صديقي دون تردد. عندئذ انتقلنا إلى موقف الحافلة.. وبعد جهد جهيد تمكنا من الصعود إلى إحداها.. لقد كانت تلك الحافلة العمومية تشبه علبة (السردين).. سارع صديقي عمر إلى دفع ثمن التذكرتين إلى موزع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التذاكر الذي يقف عند باب الحافلة.. كان ذلك الموزع يظهر بمظهر بشع؛ إذ كان يمعن في التكشير والعبوس؛ بوجهه المكفهر الكالح.. ذكرني وجهه المسود بلون السحاب الداكن.. لا أعرف لِمَ يتظاهر بذلك المظهر الكريه.. كما لو أنه يخاف أن تخطف منه بسمة من بسماته الشحيحة.. أو ربما كان يخاف أن تنساب إلى فمه رائحة الركاب العفنة..

كانت الحافلة مكتظة بنماذج متنوعة من البشر؛ كبارهم وصغارهم، إناثهم وذكورهم، خيارهم وأشرارهم، نظيفهم وقذرهم.. فغدو في الحافلة كجسم واحد؛ ملتصق بعضه ببعض كأنه بنيان مرصوص؛ ضمت أعضاؤه وأطرافه إلى بعضها؛ فغدت مثل حزمة متراصة من الحطب.. حزمة شدت موادها ــ الواحدة مع الأخرى ــ بقوة لا تسمح بالتفكك والانفصال.. وبذلك أصبحت تلك الحزمة البشرية بمثابة إنسان كلّي؛ شدت أعضاؤه المتعددة وألصقت معاً في جسم واحد.. فلم تعد تلك الأعضاء تتميز بالتفاوت والتباين.. أو التضاد والتنافر؛ فذلك الطوق الحديدي الشديد الأثر أجبر الأعضاء كلها على الاستسلام للضغوط ..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهـذا المنظـر العجيـب نشـط مخيلـتي؛ فأخـذت أتأمـل في تلـك المجموعـة البشريـة المرصوصـة إلى بعضهـا بقـوة لا تقهـر.. لقـد انضمـت إلى بعضهـا عـلى الرغـم ممـا تشتمـل عليـه مـن تناقضـات ومفارقـات.. فأخـذت أقـول لنفـسي:

ـ عجبـاً.. تضـم هـذه المجموعـة أناسـاً متباينيـن ومتنافريـن؛ أضحـوا ـ بحكـم الضغـط ـ كجسـم واحـد.. وربمـا كإنسـان كـلي.. فهـل يكـون الإنسـان الجـزئي متناقضـاً ـ أيضـاً ـ مـع نفسـه؛ طبقـاً للفـروق الـتي تميـز كـل عضـو مـن أعضائـه..؟ إذ أن مـا يبـدو عليهـا مـن تبايـن في القـدرات والقـوى، ومـا تعـودت عليـه مـن طبائـع وحركـات؛ لـم يمنعهـا مـن التـلاقي والتلاصـق.. فمـا هي القـوة الـتي تحقـق ذلـك، ومـا هـي طبيعـة الطـوق الـذي يشـد الأعضـاء والأجـزاء المختلفـة؛ خاصـة الدقيقـة والمجهريـة منهـا..؟

قطـع صديـقي عمـر عـلي تأمـلي؛ حيـن طلـب مـني النـزول، وأخرجـني مـن بحريـن غمـراني: بحـر التأمـل والتفكيـر، وبحـر بشـري خانـق:

ـ هيـا بنـا ننـزل؛ لقـد وصلنـا..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ أ أ أوف.. الحمد لله.. قم أنت بشق الطريق أمامي؛ كي أتمكن من النزول؛ إني أشعر بقيود تمنعني من الحركة في الجهات كلها..

ـ لا بأس اتبعني.. على مهلك.. تقدم على جنبك.. لا تتقدم بصدرك.. فلن تتمكن بذلك من التسلل بين العباد.. فالمواجهة هنا لا تفيد..

شعرت ـ فجأة ـ أنني قد أفلت من زنزانة سجن بغيض.. لقد كنت أشك في النجاة من ذلك الطوق الخانق الجبار.. ومع ذلك فقد نسيت حينما كنت أسير مع صديقي ـ نحو منزله ـ ضمن ذلك الرصيف المفعم بأمواج البشر؛ أنني أتحرك أيضاً ضمن طوق آخر شبيه بالطوق الأول.. وربما كان أشد قوة وفعالية منه.. فحتى في الشارع ـ أي شارع في هذه المدينة ـ يمكن اعتبار من يتحرك فيه بمثابة الإنسان الكلي؛ الذي تتحرك أجزاؤه في محيط ضيق جداً؛ ضمن وظائف قدرها الله..

قطع علي ـ للمرة الثانية ـ صديقي عمر سلسلة أفكاري؛ وحرمني من لذة التأمل ومتعة الغياب عن واقعي المتعب الأليم؛ وذلك حين قال:

ـ بيتي في هذه العمارة التي أمامك.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذهلت للمعلومة التي أفادني بها صديقي.. لم أكن أتخيل أن صديقي الأستاذ، المثقف، صاحب المنزلة الرفيعة في الوسط الاجتماعي؛ يسكن في عمارة كهذه.. إنها تبدو كأنها غرست في مجمع للنفايات.. جلت بنظري في محيطها، وفي نوافذها، وشرفاتها التي لا يمكن إحصاؤها.. لقد هالني ما نشر عليها من ألبسة وأفرشة مغسولة.. فالأجنبي ــ الذي لا يعرف عاداتنا ــ قد يتوهم أن ما نشر على النوافذ والشرفات؛ يمكن أن تكون أعلاماً ورايات؛ تزين دور المدينة ومبانيها؛ المنتشر عبر المدينة بكاملها..

وفي هذه اللحظة وصلنا إلى مدخل العمارة الذي كان مهدماً بالتمام.. لا باب له.. وعندما يلج الإنسان إلى داخل تلك السقيفة القذرة؛ بجدرانها المثقوبة، وبلاطها المحفور؛ يشعر كأنه يلج إلى قبر قديم؛ في موقع للآثار الفرعونية.. وقف صديقي أمام السلالم ينتظر وصولي.. لقد أبطأت شيئاً ما.. فالمنظر حيرني والمفاجأة أذهلتني.. كنت أتأمل بدهشة وحيرة في كل شيء أمامي؛ لذا فقد أبطأت في السير.. ولما لحقت بصديقي شرعنا في تسلق ذلك الصراط؛ الذي يسمى سلالم أو درج.. وبدأ العد التصاعدي.. الطابق الأول.. والثاني.. والثالث..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والرابـــع.. والخامـــس.. والســـادس.. دون أن تظهـــر بـــوادر تـــوحي بالوصـــول.. فقلـــت لصديـــقي:

ــ مـــا هـــذا يـــا أخي..؟! في أي طابـــق تسكـــن..؟

ــ في الطابـــق العاشـــر..

ــ يـــا..ا..ا..ه أليـــس لديكـــم مصعـــد كهربـــائي..؟!

ــ للأســـف.. إنـــه معطـــل منـــذ سنـــوات..

ــ منـــذ سنـــوات.. ألـــم تصلحـــوه..؟!

ــ ومـــن يصلحـــه.. مصالـــح الولايـــة لـــم تهتـــم بالأمـــر.. عـــلى الرغـــم مـــن ملكيتهـــا للعمـــارة..!

ــ أمـــر عجيـــب..! وأنتـــم.. سكـــان العمـــارة.. ألا ترحمـــون أنفسكـــم؛ وتبـــادرون إلى إصلاحـــه بإمكاناتكـــم الخاصـــة.. فأنتـــم المتضـــررون؛ ومـــا الـــذي يمنعكـــم مـــن الاشتـــراك في تكاليـــف إصـــلاح المصعـــد..؟!

ــ لا حيـــاة لمـــن تنـــادي.. لقـــد فشلـــت المحـــاولات كلهـــا لإقنـــاع السكـــان بذلـــك.. فكلهـــم ممتنـــع.. وراضـــون بمـــا هـــم عليـــه مـــن عـــذاب.. فهـــم غيـــر مهتميـــن بفكـــرة التعـــاون أو التكاتـــف.. المهـــم عندهـــم هـــو سلامـــة محافظهـــم، و(جيوبهـــم)..

وهكـــذا.. فهـــذا الحـــوار أنقـــذني مـــن آلام الصعـــود ومشاقـــه.. لـــم أشعـــر بالمعانـــاة؛ حينمـــا كنـــت أتكلـــم أثنـــاء الصعـــود.. وبعـــد فتـــرة وصلنـــا إلى الطابـــق العاشـــر.. لقـــد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أحسست بتعب شديد.. الأمر الذي جعلني أندم على قبول دعوة صديقي.. لم أكن أتخيل ثقل تلك الزيارة وطأتها.. ولكن؛ لا مجال الآن للندم.. فقد سبق السيف العذل..

لم يدق صديقي عمر جرس الباب؛ بل دق بيده على ذلك الباب الحديدي.. والسبب في ذلك يعود إلى أنه أبطل مفعول الجرس بنفسه ــ كما قال ــ منعاً لشقاوة أطفال الجيران واتقاء من عبثهم.. لأنهم ــ حسب قوله ــ يتسلون بالضغط على زر الجرس، ثم يهربون.. لقد كان هذا التصرف ــ بالنسبة إليهم ــ لعبة مسلية.. لم لا.. فهم لا يجدون وسيلة أخرى يلعبون بها.. وربما لا يلقون اهتماماً من طرف أهلهم.. فيتنفسون بإيذاء غيرهم.. دون فهم لأبعاد ذلك الأمر، ومخاطره.. ولهذا قلت لصديقي عمر:

ــ يبدو أن أطفال العمارة تنقصهم العناية الضرورية والرعاية اللازمة.. سواء من أهلهم، أو من السلطات المعنية.. فالطفل ــ كما تعلم ــ يحتاج إلى اللعب بقدر احتياجه للطعام والتعليم..

ــ هذا إذا كانت الأذية تأتي من الأطفال فحسب..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ مـاذا تقصـد..؟

ـ لقـد ضبطـت ـ في أحـد الأيـام ـ رجـلاً في سـن الخمسيـن؛ كـان يلعـب لعبـة أطفـال الجيـران المفضلـة.. لقـد أمسكتـه حينمـا كـان يعبـث بجـرس داري؛ كمـا يعبـث بـه الأطفـال..

ـ غريـب..!! كيـف ذلـك..؟!

ـ هـذا مـا حـدث بالفعـل.. لعلـه أراد مضايقـتي، وحمـلي عـلى النـزوح عـن منـزلي؛ كي يخلـو لـه الجـو للاستيـلاء عليـه.. ربمـا ضاقـت عليـه شقتـه؛ فـأراد شقـة أخـرى لبعـض أبنائـه أو أقاربـه..

ـ هـذا غيـر معقـول.. أأنـت جـاد فيمـا تقـول..؟!

ـ كـل شـيء ممكـن الآن.. خاصـة عندمـا يكـون العثـور عـلى منـزل في هـذه المدينـة معجـزة مـن المعجـزات..

فتـح بـاب الـدار في هـذه اللحظـة.. ولكـن.. يـا لهـول مـا رأيـت..!! إذ لـم تكـد رجـلي تخطـو خطوتهـا الأولى داخـل الـدار؛ حـتى عـدت فتصلبـت في مكـاني؛ فاغـراً فـمي مـن هـول المفاجـأة.. لقـد بـدا لي كـأن سيـلاً بشريـاً قـد تدفـق في وجـهي بمجـرد فتـح البـاب.. فصديـقي ـ كمـا علمـت فيمـا بعـد ـ لـه تسعـة أطفـال؛ أكبرهـم لـم يتجـاوز عمـره الثانيـة عشـر.. ولمـا فتـح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البـــاب هجـــم ــ جلهـــم دفعـــة واحـــدة ــ علينـــا؛ وهـــم يصرخـــون بصيحـــات النصـــر؛ الـــتي شلـــت حركـــتي وأذهلتـــني..

سحبـــني بعضهـــم إلى الداخـــل؛ مثلمـــا تسحـــب الفريســـة الشهيـــة؛ الـــتي اصطادهـــا أبوهـــم.. فأدخلـــوني في حجـــرة قـــال صديـــقي إنهـــا (صالـــة) أي بهـــو؛ واللـــه أعلـــم.. وكـــل مـــا أعلمـــه أنـــني لـــم أستطـــع تمييـــز محتوياتهـــا المحطمـــة، وأثاثهـــا المتناثـــر هنـــا وهنـــاك.. ولـــم ينقطـــع صـــراخ الأولاد حـــتى بعـــد دخولنـــا إلى تلـــك الحجـــرة؛ ولـــم ينقـــذني منهـــم ســـوى التدخـــل الفـــظ لأبيهـــم، الـــذي قمـــع جماحهـــم، وطردهـــم خـــارج الحجـــرة.. وجـــدت داخـــل تلـــك الحجـــرة (الصالـــة) رجـــلاً في العقـــد الخامـــس مـــن عمـــره تقريبـــاً. قدمـــه إلي صديـــقي قائـــلاً:

ــ صهـــري (عيســـو).

ــ تشرفنـــا..

ــ إن (عيســـو) يعمـــل في سلـــك التعليـــم.. كـــان في الســـابق معلمـــاً للغـــة الفرنســـية؛ أمـــا الآن فهـــو يحتـــل منصبـــاً إداريـــاً بمفتشيـــة التعليـــم في هـــذه المدينـــة..

ــ أهـــلاً بـــك يـــا أستـــاذ..

ــ أنْـــتَ زَادَهْ.. مَرْحْبَ بِيـــكْ..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبعد أن جلسنا على المقاعد التي كانت تحيط بمائدة قصيرة؛ فوقها (صينية) نحاسية كبيرة؛ استعدت أنفاسي شيئاً فشيئاً.. خاصة بعد خروج صديقي من الحجرة.. فانتهزت عندئذ فرصة صمت صهر صديق؛ لكي أجمع ما بقي من قوى وثبات.. ولكن لم يطل صمت (عيسو)؛ صهر صديقي؛ فقال متأففاً:

ــ اللَّهْ يُسْتَرْ.. الحَالَهْ مَاتْفَرَّحْشْ..

ــ كيف..؟!! لِمَ تقول ذلك..؟

ــ اعْلاَهْ.. كَاشِي مَا يَعْجَبْ فِي هَذِي لَبْلاَدْ.. السُّكْنَى، أَلْخَدْمَهْ، لَمْعِيشَهْ.. رُوحْ لِلسُّوقْ وَاتْشُوفْ.. يَتْقَطَّعْ جَيْبَكْ فِيهْ.. اللِّي كَايَنْ فِيهْ تْحُطُّ ثَمْ.. مَاتْشُوفَشْ اللْحَمْ وَيْنْ أوصَلْ.. وَالخُضْرَهْ تَقْدَرْ تَشْرِيهَا..؟

ــ هذا صحيح فالبلاد تجتاحها موجة من الفوضى في السوق.. لم تعد الدولة قادرة على تسيير ورقابة أعمال التجارة داخل الوطن..

ــ إيهْ اللَّهْ يَرْحَمْ ذَاكْ أزْمَانَ.. كَانْ كُلْ خَيْرْ بَيْنْ إيدَيْكْ..

ــ ما هو الزمن الذي تترحم عليه..؟

ــ أزْمَانْ فرَانْسَا.. كَانْ كُلْ شَيْءْ وَاجَدْ..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ عجيب..!! إذا كان كل شيء واجد كما تقول.. هل كنت أنت وأمثالك تستطيع الحصول على ما كان موجوداً..؟

في هذه اللحظة دخل صديقي عمر؛ ويبدو أنه سمع طرفاً من ذلك الحوار؛ أو كان يعرف ـ مسبقاً ـ منطق صهره؛ لذا فقد التقط آخر الكلام؛ وقال:

ـ إن (عيسو) يشكو دوماً من غلاء المعيشة.. ويبكي على عهد ذهب وولى.. ولا يعلم أن المشكل لا يكمن في الغلاء؛ بقدر ما يكمن في نوعية العمل في بلادنا ونجاعته.. إن دول العالم كلها بها غلاء فاحش؛ ولكن القدرة الشرائية لمواطنيها كبيرة؛ بحيث تغطي حجم ذلك الغلاء..

ومن جهتي؛ فإني لم أتمالك نفسي، ولم أخف انزعاجي من ذلك المنطق الغريب؛ لذا فقد أكملت الفكرة التي انطلق منها صديقي عمر؛ فأضفت قائلاً:

ـ يا أخي (عيسو)؛ كيف لا يكون الغلاء في بلد يتدنى فيه إنتاج الفرد إلى أدنى الحدود..؟ فالإنتاج الجيد والوافر هو الكفيل برفع القدرة الشرائية.. فبدون عمل كافي وإنتاج وافر؛ نبقى نراوح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مكاننـــا.. وإذا لـــم نتكفـــل نحـــن بمصـــدر عيشنـــا.. فـــلا يجـــب انتظـــار سقـــوط العيـــش مـــن السمـــاء؛ بـــدون مقابـــل يقدمـــه الإنســـان بجهـــده وكـــده..

ــ هَـذَا كْـلاَمْ دْيَـالْ اخْطُـبْ.. مَا يْهَـمْ الشَّعْـبْ إلاَّ وَاشْ إيشُوفُـو.. النَّـاسْ مَـا يَاكْلُـوشْ اتْفَلْسِيـفْ..

ودار حديـث طويـل بيـني وبيـن (عيسـو)؛ بينمـا كـان صديـقي في انتقـال مستمـر بيـن مجلسنـا والمطبـخ؛ لجلـب مـا تـم إعـداده مـن قهـوة ومشـروب. ولـم يكـن (عيسـو) يشكـو مـن الغـلاء فحسـب؛ بـل هـو ساخـط ــ أيضـاً ــ عـلى كـل شـيء في هـذا الوطـن.. عـلى غـلاء المعيشـة، عـلى انعـدام المساكـن وقلتهـا، عـلى فـوضى المواصـلات وتذبذبهـا، عـلى انحـدار مسـتوى التعليـم..

كـل تلـك المواضيـع ــ في الحقيقـة ــ يرددهـا يوميـاً الساسـة والمثقفـون.. وهي ــ بالفعـل ــ قضايـا ونقائـص لا تنكـر.. غيـر أن مـا ينكـر عـلى (عيسـو) هـو جهلـه بالأسبـاب الـتي أوصلـت هـذا الوطـن إلى مـا هـو عليـه.. والغريـب أنـه يرجـع ذلـك كلـه إلى الاستقـلال الـذي فصلنـا عـن فرنسـا.. نعـم هكـذا يفكـر (عيسـو) التعيـس.. وتساءلـت بيـني وبيـن نفـسي عـن مصـدر معلومـات هـذا المسكيـن..؟ وبـأي وسيلـة يمحـص معلوماتـه، ومـن أي مصـدر يستـقي معلوماتـه المشوهـة..؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما استفسرت عن المقاييس المنطقية التي يحتكم إليها؛ ويقيس الأوضاع بواسطتها.. ثم قلت:

ـ لا تكن قاسياً ومتطرفاً في تشويه صورة بلدك يا أخي.. فما ذكرته ـ في بداية حديثك ـ فيه بعض الصحة؛ ولكن تطرفك إلى الحد الذي تفضل فيه استعمار وطنك على استقلاله؛ غير مقبول أبداً.. فما الذي كسبته أنت وأسرتك من الاستعمار الذي كان يجثم على صدرنا جميعاً، وينهب ثرواتنا كلها..؟ وماذا قدم إليك أنت وشعبك هذا الاستعمار..؟ وإن كنت تشكو الآن من مشاكل موضوعية؛ فهل خلت البلاد من تلك المشاكل أيام الاستعمار..؟ وهل حقق الاستعمار ما كنت تحلم به أنت وأسرتك..؟ هل أزال عنك وعن شعبك: الفقر والمرض والجوع والجهل..؟ هل قدم لك وسائل العيش الضروري بأيسر السبل، وأبخس الأثمان..؟ هل وفر لك السكن الصحي الكريم، أنت وأسرتك دون عناء.. هل نشر التعليم بين أهل البلاد، وعممه على فئات المجتمع كلها..؟

وهنا تدخل صديقي (عمر)؛ الذي يبدو أنه يحفظ (اسطوانة) صهره (عيسو).. إذ طالما رددها بكثرة؛ في المجالس كلها والمناسبات كافة.. نعم كان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يعــرف منطــق صهــره الملتــوي الشــاذ.. فقــال وكأنــه أراد إحــراج صهــره؛ وتسديــد صفعــة قويــة لوجهــه كي يفيــق:

ــ أحسنــت يــا أخي.. لقــد حــرص الاستعمــار عــلى نشــر الجهــل، ومنــع كــل توجــه نحــو تعليــم أبنــاء الشعــب.. أتعلــم يــا صديــقي أن صهــري العزيــز لــم يتوصــل في التعليــم ــ أيــام الاستعمــار ــ إلى أي مستــوى لــه قيمــة.. أنــه لــم يتجــاوز السنــة الرابعــة ابتــدائي؛ إذ طــرد مــع مــن طــرد مــن المدرســة الاستعماريــة ؛ الــتي كانــت تهــدف إلى تقديــم حــد أدنى مــن التعليــم لبعــض الجزائريــن.. ولا تسمــح لهــم بتجــاوز ذلــك الحــد؛ إلا في حــالات خاصــة؛ تتعلــق بنوعيــة المتعلميــن، ومــدى الخدمــة الــتي تقدمهــا أسرهــم لفرنســا..

ــ ولــكن أنــت قلــت أنــه معلــم؛ وانتقــل للعمــل الإداري بالمفتشيــة..

ــ نعــم قلــت هــذا.. والفضــل في ذلــك، للجزائــر وليــس لفرنســا.. كــان يعلــم اللغــة الفرنسيــة.. لأن عمليــة تحسيــن تكوينــه، وترقيتــه إلى معلــم حدثــت بعــد الاستقــلال.. ولــو بقيــت فرنســا لظــل صهــري العزيــز يعمــل في قطــاع البنــاء كعامــل بسيــط.. ولكــن بلــده المستقــل انتشلــه مــن ذلــك المستــوى؛ إلى مستــوى أرفــع وأحســن.. إذ استفــاد مــن تربصــات أهلتــه لــكي يصبــح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معلماً.. ثم نقل للعمل في الإدارة بالمفتشية؛ حدث هذا لأنه يجهل اللغة العربية التي عممت في التعليم الإبتدائي..

سقطت كلمات صديقي (عمر) على (عيسو) كالصاعقة؛ فالتزم الصمت؛ وتحول لون بشرته من الاحمرار إلى السواد؛ حنقاً وغضباً من صهره الذي بدأ يكشف سره.. ثم قال:

ــ وَاشْ فِيهِ.. أعْلاَهْ كِي انْعَلَّمْ بَالْفَرَانْسَوِيَّهْ..؟ أصْحِيحْ كُنْتْ انْعَلَّمْ أفْرَانْسَاوِي؛ مَا قْرَيْتَشْ الْعَرْبِيَّهْ كِي كُنْتْ أصْغِيرْ.. اللَّهْ غَالَبْ.. وَاشْ أنْدِيرْ..؟ مَا فِيهَا بَاسْ..

ولكن صديقي (عمر) واصل هجومه والضغط على صهره؛ الذي وضع نفسه في ورطة؛ بسبب تطرفه، وتجاوز الحدود المعقولة.. ولا أدري إن (عيسو) المسكين قد شعر بالندم على فتح الباب أمام حوار كهذا من الأساس.. ولكنه يعلم ــ حتماً ــ أنه هو البادئ؛ والبادئ أظلم.. المهم أن صديقي (عمر) واصل حملته فقال:

ــ العيب ليس في كون الإنسان لم يتعلم العربية في صغره؛ فهذا لا ذنب له فيه.. ولكن العيب أن يضل الإنسان في غيه وضلاله، وتعصبه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأعمى.. فمثلاً أنت: ما الذي منعك من تعلم العربية وأنت في ريعان الشباب.. فكما تعلمت الفرنسية في سن متأخرة، وأصبحت تعلم بها؛ كان في إمكانك تعلم لغة بلادك أيضاً..

ـ الفرنسية أعرفها من قبل.. تعلمتها في صغري..

ـ ليس صحيحاً ما قلته.. فعندما دخلت سلك التعليم بعد الاستقلال دخلت كممرن لا غير؛ ثم شاركت في حملات التكوين بالفرنسية؛ حتى سمح لك مستواك المتواضع أن تتعين ضمن إطار الممرنين.. فكما تعلمت الفرنسية كان في الإمكان تعلم العربية؛ ولكن لم تتوفر لك الإرادة الكافية..

احتد الحوار بين صديقي عمر وصهره (عيسو)؛ وأخذ كل واحد منهما يكيل الاتهامات للآخر؛ ويعدد مثالبه.. يبدو أنهما كانا على خلاف كبير؛ أخفياه بالتمويه والمجاملة والمداراة.. ولم أتمكن من متابعة حوارهما الحاد.. إذ عدت ـ من جديد ـ إلى ما تعودت عليه من الاستغراق في التفكير والتأمل..

كنت إذا انتابتني هذه الحالة؛ أغيب تماماً عن واقعي؛ الذي أوجد فيه.. وعلى هذا؛ لم أعد أسمع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مـــا كـــان يـــدور مـــن خصومـــة؛ بيـــن صديـــقي عمـــر، وصهـــره (عيســـو).. كـــل الـــذي ملـــك خيـــالي؛ هـــو تفكيـــري فيمـــا أصبـــح فيـــه بعـــض الأفـــراد، أو الجماعـــات مـــن أبنـــاء وطـــني..

ــ أيعقـــل وجـــود أنـــاس بهـــذه البشاعـــة والسخافـــة..؟! أيصـــل الحـــال بهـــؤلاء المهزوزيـــن إلى حـــد تفضيـــل عـــدو تاريـــخي لهـــم، ولشعبهـــم لأتفـــه الأسبـــاب..؟! هـــل نـــسي هـــذا البائـــس بسهولـــة مآسيـــه، ومـــآسي شعبـــه؛ لمجـــرد أطمـــاع ظرفيـــة تافهـــة؛ أو انسياقـــاً خلـــف حلـــم وهـــمي..؟!

ــ هـــذا مـــا وصلنـــا إليـــه في هـــذا الزمـــن الـــرديء.. أصبـــح فيـــه كـــل شـــيء ممكـــن.. نعـــم قـــد يفقـــد الإنســـان قيمـــه؛ ويتنكـــر لأمتـــه، ولوطنـــه.. بـــل حـــتى لآبائـــه ولأبنائـــه..

ــ هـــذه لوثـــة أصابـــت المجتمـــع في الصميـــم.. هـــذا تفكـــك وزعزعـــة للصفـــوف.. أيـــن الإنســـان الكـــلي الـــذي تخيلتـــه عندمـــا ركبنـــا الحافلـــة..؟!

ــ يبـــدو أني توهمـــت ذلـــك.. مـــا الـــذي رأيتـــه إذن في تلـــك الحافلـــة..؟ ألـــم تكـــن كتلـــة بشريـــة موحـــدة ومتكاتفـــة..؟ أيعقـــل أن تكـــون عبـــارة عـــن أكـــداس مـــن البشـــر..؟! أيمكـــن أن تكـــون عبـــارة عـــن أكـــداس مكدســـة ممـــا اصطلـــح باســـم (غـــاشي)..؟!

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي هذه اللحظة أفقت على صوت صديقي؛ وهو ينبهني؛ ويقول لي:

ـــ ما هذا..؟ ألم تكن معنا..؟ أين كنت يا أخي..؟ يبدو أننا أزعجناك بجدالنا الحاد.. أنا متأسف.. لا تؤاخذنا.. كل ما في الأمر أن الحماس امتلكنا؛ وأخرجنا عن حدود اللياقة..

ـ أبداً.. لم أتصور هذا تماماً.. لقد استغرقت في التفكير قليلاً.. لقد نقلني الحديث مع صهرك إلى أشياء كانت تلح علي باستمرار..

ـ لا تهتم بما يقوله (عيسو)؛ إن له (خرجات) غريبة أحياناً.. ربما حدث ذلك بسبب جهله ببعض القضايا.. ومن جهل شيئاً عاداه؛ كما تعلم..

ـ المهم.. ليس أمامي سوى التذكير بقوله سبحانه وتعالى: ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)).. وأنتهز هذه الفرصة؛ لكي أسرد عليكما قصة لعل فيها عبرة لما نحن فيه..

ـ هات ما عندك.. لقد اشتقت إلى قصصك الهادفة..

ـ كان فيما كان؛ في أيام هذا الزمان؛ رجل غارق في بحار الحرمان؛ له حمار غلبان، تعبان؛ وعربة ملفقة البنيان؛ يعمل بهما بين آن وآن؛ لسد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رمــق أبنــاءه، وإشبــاع بطنــه الجوعــان.. أتتــه ذات يــوم فرصــة فريــدة في الزمــان؛ فامتــطى سفينــة نحــو فرنســا بلــد الجــان.. فلــم يــر فيهــا ســوى الكــد ليــلاً ونهــاراً كعبــد مهــان.. لا يهمــه فيهــا ســوى جمــع المــال والفرنــك الرنــان؛ ليكــون لــه ستــراً وأمــان.. بعــد مــرور سنــوات طــوال؛ جمــع فيهــا ثــروة ومــال.. قــرر الزيــارة لموطنــه الــذي اشتــاق إلى مــا فيــه مــن دفء وأمــان.. فاشتــرى سيــارة كرجــال الأعمــال؛ ليــزور بهــا قريتــه كأبطــال الزمــان.. ويجــول بهــا كديــك في زهــو وكمــال..

وعــاد بالفعــل إلى قريتــه؛ فاستقبلــه أهلــه، وأبنــاء قريتــه بحفــاوة ملحوظــة، وحــب صــادق.. ولكــن تلــك الحفــاوة الشديــدة؛ هــزت كيــان الرجــل.. وأصابتــه ببعــض الغــرور والخيــلاء المصطنــع.. إذ كــان يبالــغ في الحديــث عــن فرنســا، ومــا رآه في فرنســا.. كمــا كــان مولــع بضــرب الأمثــال، وعقــد المقارنــات بيــن قريتــه وفرنســا؛ فكلمــا شاهــد عيبــاً في القريــة؛ تمثــل بفرنســا وكمــال فرنســا؛ وبالمقابــل يبالــغ في الحــط مــن قيمــة قريتــه.. كــل هــذا أزعــج مواطنيــه، وأبنــاء قريتــه الغيوريــن؛ فابتعــدوا عنــه، وعــن مجالســه.. وفي إحــدى الأيــام كــان مدعــواً إلى وليمــة عــرس بالقريــة؛ فتأخــر عــن الحضــور

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعض الوقت. ولما حضر سأله بعض الجالسين عن السبب في تأخره؛ فقال:

ـ وجدت دولاب السيارة معطوباً؛ فذهبت لإصلاحه.. إن طرق هذه القرية بعيدة كل البعد عن طرق فرنسا؛ إنها محفرة كلها.. هذا أمر فظيع.. وشيء لا يحتمل..

هنا تصدى له أحدهم؛ من الذين ضاقوا ذرعاً به وبانتقاداته؛ فقال له بمكر وخبث:

ـ أتعرف السبب في تلك الحفر التي تملأ الطرقات..؟

فأجابه ذلك المغترب المغرور بحسن نية وسذاجة:

ـ لا،، فما هو السبب..؟

ـ إن من حفر تلك الحفر هو حمارك؛ عندما كنت بيننا.. أتذكر ذلك..؟

فبهت المسكين؛ ولم ينبس بحرف واحد..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بين الميم والنون

تسللت ليلاً إلى مكتبي الهادئ؛ بحثاً عن مصابيح قد تنير لي موطأ قدمي في دروب معتمة بالسواد المريب.. وفي تلك الخلوة المفضلة قلبت ــ بشوق ولهفة ــ بين راحتي أوراقاً مختلفة في ألوانها، ومتباينة في مضمونها.. منها ما ثُبِّتَ ــ بإحكام ــ ضمن كتب متفاوتة الأحجام، ومنها ما أُلْصِقَ في بعض الكراسات؛ التي أسموها صحفاً ومجلات..

وهكذا.. مرت ساعات من الليل؛ كنت خلالها مستغرقاً في متعة نادرة؛ مكنتني من المطالعة، وتصفح تلك الأوراق؛ في وقت خفتت فيه مصادر الضجيج، وانعدمت منابع الإزعاج.. ومع مرور ساعات عديدة؛ أتيت فيها على أوراق كثيرة؛ هضماً وقراءة؛ بدأت أشعر بدوار في رأسي، وبذبول في بصري.. وشيئاً فشيئاً؛ لم أعد أدري ما أنا فيه..

ولما التفت حولي وجدت نفسي ــ فجأة ــ في غرفة أخرى؛ غير التي كنت فيها.. لم أعد أدري ما جرى.. لعلي خرجت من مكتبي؛ ولم أذكر متى تم ذلك، أو كيف حدث هذا.. وبعد لحظة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قصيرة دخل إلى الغرفة شخصان مَوَّها شكليهما.. لم أتمكن من تمييز جنسيهما.. كانت تلك الغرفة متسعة الفضاء؛ وكثيرة المحتويات؛ فجلس الاثنان بعيداً عن موضع جلوسي.. يبدو أنهما لم ينتبها لوجودي؛ خاصة وأنه ــ حسبما يظهر ــ كانا منشغلين في حوار ساخن دائر بينهما.. سمعت أحدهما يقول للأخر:

ــ لماذا هذه الخصومة بيننا..؟ ولماذا نختلف في أمور ليست بأيدينا..؟ ونتصارع على قضايا لم نقم نحن بالتسبب فيها؛ كما أننا لم نبتكرها..؟ ألا يمكن التوفيق بين وظيفتينا..؟ وخلق جو من التعاون والتكاتف بيننا؛ بغرض تحقيق التكامل..؟

ــ هذا مستحيل.. فإذا ما بقي الأمر كما نحن عليه، أو سلمنا بما تقوله؛ فمعناه؛ أنك ستبقى في موقع أفضل من موقعي.. لذا.. لا بد من تبادل الوظائف والمواقع..

وهنا تحركت في نفسي محفزات الفضول وحب الاستطلاع؛ فانتقلت من مكاني البعيد؛ واقتربت منهما؛ رغبة في سماع ما يدور بينهما بشكل أفضل.. ويبدو أن حركتي نبهتهما بوجودي..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فاضطربـــا، وقطعـــا حديثهمـــا.. لقـــد أحرجتهمـــا؛ وضايقتهمـــا باقتـــرابي منهمـــا.. ولكـــني بادرتهمـــا قائـــلاً:

ــ لا عليكمـــا.. إني آســـف.. ولكـــني سمعـــت حـــواراً هامـــاً؛ شـــدني إليكمـــا؛ فاقتربـــت طمعـــاً في التـــزود مـــن فائـــدة حوركمـــا..

ــ لا بـــأس.. سنشاركـــك مشاكلنـــا.. مـــا دمـــت قـــد صارحتنـــا بمـــا في نفســـك..

ــ قبـــل كـــل شـــيء أتمـــنى أن أتشـــرف بمعرفتكمـــا..

ــ أنـــا اســـمي ميـــم الجمـــع؛ وهـــذه اسمهـــا نـــون النســـوة..

ــ عجبـــاً.. مـــن أيـــن أتيتمـــا..؟ هـــل خرجتمـــا مـــن كتـــب اللغـــة والنحـــو..؟!

م ــ هـــا..هـــا..هـــا بالفعـــل.. لقـــد عرفـــت مـــن أيـــن أتينـــا..

ــ ولكـــن مـــاذا تفعـــلان هنـــا..؟! ومـــا سبـــب الخصومـــة الـــتي بينكمـــا..؟

م ــ إن نـــون النســـوة تنازعـــني في وظيفـــتي؛ وترغـــب في اغتصابهـــا..

ن ــ لا تصدقـــه.. لـــم أطلـــب ســـوى المســـاواة في الحقـــوق.. ولـــم اعـــرض عليـــه إلاَّ تبـــادل الوظائـــف؛ بالتـــداول..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

م ــ وأي حقــوق..؟ إن الحقــوق مرتبطــة دومــا بالواجبــات.. فهــل تطالبيــن بالمســاواة في الواجبــات أيضــاً..؟ وهــل تقبليــن بمبــدأ التــداول عــلى الأعمــال الشاقــة أيضــاً..؟

ن ــ بــلى.. فأنــا مستعــدة للقيــام بواجبــاتي عــلى أفضــل وجــه.. ولا تخيفــني الأعمــال الشاقــة..

عندئــذ أدركــت مــدى الصــراع الدائــر بينهمــا؛ وهنــا جذبتــني سلسلــة التأمــل والتفكيــر؛ فتناسيــت جدالهمــا؛ وتجاهلــت مــا كــان يــدور بينهمــا.. فلــم أعــد أسمــع مــا يقولانــه.. إذ استعــدت ــ في هــذه اللحظــة ــ مــا أعرفــه عــن هاذيــن المتعارضيــن.. فلــم يغــب عــني ــ عندئــذ ــ ما للميــم والنــون مــن وظائــف ومسئوليــات.. في الميادين اللغويــة والنحويــة والحسابــات الغيبيــة..

فهمــا كثيرتــا التلــون والتنقــل مــن شكــل إلى آخــر؛ ومــن وظيفــة إلى أخــرى.. إذ سرعــان مــا يغيــران عملهــا ومسئولياتهمــا.. فقــد تستبــدلان ــ بيــن الحيــن والآخــر ــ مبــدأ بمبــدأ.. وقميصــاً بقميــص..

ورُبَّ تغييــر وتبديــل أوصلهمــا إلى حــد تقمــص الوظائــف والمسئوليــات الإنسانيــة.. فالميــم ــ عــلى سبيــل المثــال ــ لهــا وظائــف عديــدة، وتتنقــل مــن واحــدة إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أخــرى؛ كلمــا استدعــت الحاجــة ذلــك؛ ومــن وظائــف الميــم أنهــا:

ــ حــرف مــن الحــروف الهجائيــة (الأبجديــة).

ــ وتســاوي في حســاب الجمــل (40).

ــ وتكــون اســم استفهــام؛ بمشاركــة حــروف للجــر.

ــ وتكــون للتثنيــة؛ إذا مــا شاركتهــا الألــف.

ــ وتكــون ميمــاً لجمــع الذكــور.. وهــو بيــت القصيــد هنــا..

أمــا النــون فلهــا هي الأخــرى وظائــف كثيــرة منهــا:

ــ أنهــا حــرف مــن الحــروف الهجائيــة (الأبجديــة).

ــ وفي حســاب الجمــل تســاوي (50).

ــ وتكــون النــون للتوكيــد.

ــ وتكــون نونــاً للتنويــن في المفــرد مــن الأسمــاء.

ــ وتكــون نونــاً للمضارعــة.

ــ وتكــون نونــاً للنســوة؛ وهي الــتي نــرمي إليهــا؛ خاصــة عندمــا تكــون مقابلــة لميــم جمــع الذكــور؛ حيــث تصبــح النــون ــ في هــذه الحــال ــ مضاعفــة؛ أي مشــددة..

%%%

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهكـذا.. بـدأت أفهـم المغـزى مـن ذلـك الجـدال؛ الـذي نشـب ـ حاميـاً ـ بيـن الميـم والنـون.. لقـد أرادت النـون في شكلهـا النسـواني؛ استبـدال وظيفـة جديـدة بوظيفتهـا الحاليـة؛ وذلـك بعـد أن انتابتهـا موجـات متتاليـة مـن الملـل والسـأم؛ نتيجـة لمـا اعتادتـه مـن الصـور، والأشكـال الـتي سبـق لهـا أن تقمصتهـا مـراراً وتكـراراً.. فمـا كـان مـن النـون سـوى أنهـا أطلقـت لرغباتهـا العنـان؛ بحثـاً وتنقيبـاً عـن الوظيفـة الـتي لـم تحـظ بشـرف الرضـوخ للنـون النسوانيـة.. وفي آخـر الأمـر هداهـا تفكيرهـا الفـذ.. إلى وظيفـة مغريـة؛ وذلـك أنهـا تطلعـت إلى اغتصـاب وظيفـة ميـم الجمـع للذكـور.. وكانـت كلمـا أطالـت التفكيـر في الوظيفـة الجديـدة؛ اشتـد حماسهـا، وطموحهـا لتلـك الصفـة الرجاليـة المغريـة..

وعـلى هـذا فقـد بـادرت نـون النسـوة فـوراً إلى لقـاء ميـم الجمـع؛ حيـث فتحـت عليهـا أبوابـاً مـن المطالـب، وفنونـاً مـن المـراودة والابتـزاز.. طمعـاً في استبـدال وظيفتيهمـا فيمـا بينهمـا.. غيـر أن جـواب الميـم جـاء بالرفـض والاستهجـان.. والإعـلان عـن التمسـك بوظيفتهـا.. وهكـذا دار بينهمـا ذلـك الحـوار الغريـب..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ آ..أ..آ..ه لقد تذكرت.. إني غبت في التأمل.. ماذا حدث..؟ ها..أ..أ إنهما باقيان في موضعهما.. هذه ميم الرجال تتكلم:

م ـ لا يسعني إلا التأسف.. لا يمكنني قبول اقتراحك بهذه البساطة.. لأنني أرى فيه ثورة على الطبيعة؛ وتهديما للقيم.. وليس مجرد تبادل للوظائف.

ن ـ إني لا أرى في ذلك ثورة على الطبيعة؛ وما الذي يضر الطبيعة إذا ما أصبحت أنت مخصصة للنسوة، وأضحيت أنا نوناً لجمع الذكور..؟! إني أتساءل: ما الذي حشر أنف الطبيعة في هذا..؟! كما أن القيم التي ذكرت؛ لم تكن قيماً عادلة، ولا معقولة.. فمن وضعها وقدرها..؟

م ـ إن لنون النسوة خصوصيات، ولميم جمع الذكور خصوصيات؛ لا يمكن تبادلها، ويستحيل انتقالها من طرف إلى آخر؛ دون إحداث خلل وهزة في الطبيعة.. وعلى هذا؛ لن يتحقق هذا الأمر إلا إذا تغيرت قوانين الطبيعة..

ن ـ هذا هراء.. وخرافة لا أقول بها.. فلنون النسوة ـ في نظري ـ مهام وواجبات مماثلة لمهام وواجبات ميم جمع الذكور.. كما أن للإثنين حقوقاً متساوية تماماً..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

م ــ أنــا لا أنكــر بــأن لنــون النســوة حقوقــاً وواجبــات؛ تقابــل ــ طبعــاً ــ مــا لميــم جمــع الذكــور مــن حقــوق وواجبــات.. غيــر أني لا أستطيــع هضــم تلــك المســاعي والمحــاولات الشــاذة؛ الــتي تــرمي إلى استبــدال طبيعــة الميــم بطبيعــة النــون.. فالميــم اتصفــت بالصفــات الرجاليــة؛ بينمــا اتصفــت النــون بالصفــات النسائيــة.. فهــذه الحركــات الانقلابيــة كلهــا منافيــة لقوانيــن الطبيعــة؛ ومتناقضــة مــع القيــم الاجتماعيــة؛ الــتي خصــت كــل طــرف بصفــات وقــدرات معينــة.. إذن.. فــلا داعي للبحــث ــ عــبثــاً ــ عــن وظيفــة غريبــة عــن قدراتــك، وبعيــدة عــن مزاجــك، ومتناقضــة مــع طبيعتــك.

ن ــ إن مــا أسميتــه وظيفــة لي؛ هــو أمــر قــد فــرض عــلى أســلافي بالقــوة؛ منــذ عهــود غابــرة؛ وأنــا لا أعتــرف بــه في هــذا العصــر؛ عصــر الحقــوق المطلقــة.. وعصــر حقــوق الإنســان.. وعصــر حقــوق الحيــوان أيضــاً..

م ــ وعصــر حقــوق الطبيعــة كذلــك.. أليــس صحيحــاً..؟

ن ــ طبيعــة.. طبيعــة.. هــذا لا يهمــني.. المهــم أن مــا أنــا عليــه، وأن مــا وجــدت نفــسي فيــه؛ لــم يكــن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

باختيـــاري وإرادتي؛ بـــل فـــرض عـــلي؛ دون استشـــارة أو تقريـــر مصيـــر..

م ــ لقـــد وضعـــت في الوظيفـــة الـــتي تتناســـب مـــع طبيعتـــك، ومـــع قدراتـــك.. وهـــذا هـــو حكـــم اللـــه عليـــك.. ألـــم تُكْتَـــبي في النصـــوص القرآنيـــة هكـــذا..

ن ــ حـــاشى للـــه.. لقـــد فـــرض عـــلي هـــذا علمـــاء اللغـــة والنحـــو.. ولـــم تفرضـــه النصـــوص القرآنيـــة.. وعلـــم النحـــو ــ كمـــا هـــو معلـــوم ــ اختـــرع بعـــد نـــزول القـــرآن.. ومـــا جـــاء في علـــم النحـــو لا يعـــدو أن يكـــون مجـــرد تأويـــل خـــاطئ..

م ــ أمـــا قولـــك بـــأن القـــرآن قـــد نـــزل قبـــل ابتـــداع النحـــو فهـــذا صحيـــح، ولا يســـاورني في ذلـــك أدنى شـــك؛ ولكـــن مـــن الضـــروري أن تعلـــمي بـــأن النحـــاة قـــد استمـــدوا علـــم النحـــو مـــن القـــرآن نفســـه؛ بالإضافـــة إلى كنـــوز اللغـــة الأخـــرى.. ومـــا النحـــو إلا ضوابـــط، ومؤشـــرات، وقياســـات؛ اعتمـــدت عـــلى شواهـــد مـــن نصـــوص قرآنيـــة؛ وقـــد اكتشـــف النحـــاة وظيفتـــك الحقيقيـــة؛ مـــن خـــلال دراســـة النصـــوص القرآنيـــة.

ن ــ حسنـــاً.. ومـــا هـــو الحكـــم الـــذي أصـــدره اللـــه في حـــقي..؟

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

م ــ لقد أسند إليك القرآن الكريم هذه الوظيفة؛ من خلال ما ورد فيه من ألفاظ وتراكيب؛ مثل: كيدكن، كيدهن، مكرهن، منهن، أيديهن،، عليهن.. إلخ..

ن ــ عجباً لك ولتأويلاتك..!! أيكفي سرد هذه الكلمات للحكم علي بالعجز..؟! أتعتمد على هذه العبارات لتسوغ لنفسك ما تميل إليه وتهواه؛ في إنكار قدراتي وكفاءتي..؟!

م ــ إنه تأويل صادق؛ وهو مدعم بآيات كثيرة في القرآن الكريم.

ن ــ بل تعارض رأيك آيات قرآنية كثيرة.. أنسيت ما قاله سبحانه وتعالى:((للرجال نصيب مما اكتسبوا، وللنساء نصيب مما اكتسبن)).. وقوله أيضاً: ((ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف)).

م ــ هذه الإستشهادات حجة لي؛ وليست علي.. وهي تؤيد ما قلته سابقاً.. وأنا لم أنكر بأن (للنساء نصيب مما اكتسبن)؛ كما هو الحال ــ أيضاً ــ بالنسبة للرجال.. وكل ما أقوله أن للنساء حقوقاً كما لهن واجبات، وبالقدر نفسه.. غير أني أتحفظ على كل جموح، أو رغبة في تقمص الوظائف الرجالية.. ألم تقرئي قوله تعالى: ((الرجال قوامون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عـلى النسـاء؛ بمـا فضـل اللـه بعضهـم عـلى بعـض، وبمـا أنفقـوا مـن أموالهـم))..؟

ن ــ صـدق اللـه العظيـم.. ولكنـه سبحانـه وتعـالى قصـد بهـذه الآيـة النسـاء العاطـلات؛ الـلآئي يترقبـن نفقـة الرجـال؛ الذيـن يعملـون عـلى إعاشتهـن.

م ــ فليكـن مـا تقوليـن أن قسمـاً مـن هـذه الآيـة يؤيـد رأيـك.. ولكـن مـا رأيـك في قولـه تعـالى: (وللرجـال عليهـن درجـة).. وحـتى وضعـك أنـت يفسـر ذلـك.. إذ أنـك لا تؤديـن مهامـك إلا بمساعـدة سريـة داخليـة..

ن ــ كيـف ذلـك..؟!

م ــ فأنـا ميـم جمـع الذكـور.. أعتمـد عـلى ذاتي؛ دون حاجـة إلى مساعـدة غيـري؛ إذ لا يعينـني أحـد عنـد القيـام بوظيفـتي.. فهـل أنـت قـادرة عـلى الاعتمـاد عـلى ذاتـك..؟ وهـل تقدريـن عـلى مزاولـة وظيفتـك دون معونـة، أو مساعـدة..؟ وهـل يمكنـك ــ لوحـدك ــ أن تسـاوي شخصـاً مذكـراً..؟ إذن.. كيـف تفسريـن اضطـرارك لمعونـة غيـرك كي تفيديـن النـاس..؟ أمـا تريـن كيـف تجـاورك باستمـرار نـون ثانيـة..؟ أي أن نونـاً أخـرى مخفيـة تعاونـك عـلى أداء المهمـة الـتي أسنـدت إليـك.. ولهـذا قالـوا عنـك أنـك نونـاً مشـددة؛

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بمعنى مضاعفة.. فهل أحتاج أنا إلى مساعدة غيري..؟ أبداً.. فأنا أقوم بمهامي كلها وحدي.. ولا أحتاج إلى ميم أخرى لكي يستوعبني الناس أو يصدقوني..

أردت أن أتدخل لفك الاشتباك، والفصل بينهما؛ بالتعبير عن رأيي في الموضوع؛ ولكني أحسست بعقدة تربط لساني؛ فلم أتمكن من الكلام.. ثم شعرت في هذه اللحظة بيد تربت على كتفي.. فانتبهت على الفور.. وإذا بي جالساً على مقعدي بمكتبي؛ وزوجتي واقفة إلى جانبي؛ وهي تقول:

ــ إن الوقت متأخر.. لقد أطلت في السهر.. لهذا انتابتني بعض الهواجس، والقلق عليك.. هيا بنا.. أترك القراءة إلى غد..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شمشـون الجديـد

قـدم (رمضـان) إلى قريتـه النائيـة في زيـارة قصيـرة لأهلـه.. إنـه يفيـض شـوقـاً لرؤيـة والديـه، والجلـوس مـع إخوتـه وأصدقائـه.. لقـد مـر شهـر تقريبـاً عـلى تبديـل مواقـع وحدتهـم في جبهـة القتـال.. فأصبـح قدومـه إلى دار أهلـه ممكنـاً الآن.. فالمسافـة لـم تعـد بعيـدة مثـل الأيـام الأولى.. كمـا أن حـدة المعـارك خفتـت؛ بفعـل اتفـاق وقـف القتـال، ومنـع إطـلاق النـار.. فلـم يعـد (رمضـان) ينتظـر سـوى العـودة النهائيـة؛ لـكي يتابـع دراستـه الجامعيـة.. إن القتـال أصبـح في حكـم المستحيـل الآن..

وجلـس (رمضـان) بمحـاذاة والدتـه عـلى الأريكـة الطويلـة الـتي تفضلهـا.. إن والدتـه تحمـد اللـه عـلى سلامـة ابنهـا؛ وتتمـنى عودتـه النهائيـة إليهـا.. أمـا والـده فقـد كـان يتأجـج غيظـاً وغضبـاً عـلى المتسببيـن فيمـا حـدث.. إنـه لا يوافـق عـلى وقـف القتـال بهـذه الصـورة المريبـة.. كمـا يقـول.. وقـد استغـرب انتقـال ابنـه إلى مواقـع أخـرى قريبـة.. وكـان يتسـاءل باستمـرار: هـل هزمنـا..؟! أبـداً.. لـم نهـزم.. لـم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يهزمنا العدو.. وإذا كنا قد هزمنا ــ فعلاً ــ فهزيمتنا حصلت بيد واحد منا..

دار حديث طويل حول ما جرى في جبهة القتال.. إن ما قاله (رمضان) يبعث على الاعتزاز بجيشنا، ويملأ القلوب فخراً بأبنائنا الأبطال.. ولكن.. من أين جاءت الطعنات القاتلة؛ التي سددت لظهور الأبطال الأوفياء..؟ تكلم الأب بمرارة وألم فقال:

ــ سيسجل التاريخ أن خيانة وقعت في هذه الديار.. وستقرأ الأجيال القادمة الحقيقة.. نعم الحقيقة التي لا يمكن تزييفها إلى الأبد..

ــ ولكن يا والدي يبدو أن العدو يمتلك قدرات خارقة.. لقد قال لنا قائد من قادتنا أنه يستحيل التغلب على العدو بصورة مطلقة..

ــ لماذا قاموا بالحرب إذن..؟!! فمن أجبرهم على ذلك..؟ ثم ما هي هذه القدرات الخارقة التي يمتلكها العدو..؟

ــ يقولون أنه يمتلك القنبلة الذرية..

ــ وحتى إذا امتلك القنبلة الذرية.. فهل يزيد ذلك في قدراته القتالية الفعلية..؟ فها هي الولايات المتحدة هزمت في فيتنام؛ مع أنها تمتلك قنابل نووية وهيدروجينية.. إن امتلاك هذا السلاح أصبح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بمثابة عبء ثقيل على ممتلكه.. إذ لا يقدر على استعماله في هذا العصر.. في الوقت الذي يكلفه أموالاً طائلة..

ـ لماذا ـ إذن ـ ينفقون الأموال الباهظة لصنع وتطوير هذا النوع من السلاح..؟

ـ يفعلون ذلك بغرض الردع لا غير.. فهم يريدون إفزاع الناس، وإرهابهم؛ بامتلاكهم ذلك السلاح المريع..

ـ إذن.. ألا تكون إسرائيل قد حصلت على هذا السلاح..؟

ـ وحتى إذا حصلت عليه؛ فهل تستطيع استعماله..؟ لا أعتقد ذلك..

ـ كل شيء ممكن يا أبي.. فهذه الفئة من البشر يمكنها فعل كل شيء.. لأن أخلاقها تجيز العيش على الدماء.. ألا تعرف يا والدي قصة شمشون ودليلة..

ـ سمعت بشيء عن ذلك؛ ولكن لا أعرف القصة كلها..

ـ فأسطورة شمشون ودليلة من الخرافات اليهودية الشهيرة.. وهي تعبر تعبيراً صادقاً عن النفسية الصهيونية.. كما تعبر أيضاً عن ذلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصـــراع التاريـــخي المزمـــن؛ بيـــن الشعـــب الفلسطيـــني واليهـــود.. ومؤلـــف الأسطـــورة يكـــون ــ بـــدون شـــك ــ يهوديـــاً؛ ألفهـــا بدافـــع استجـــداء العطـــف عـــلى اليهـــود؛ الممثليـــن في شخـــص بطلهـــم الأسطـــوري شمشـــون، هـــذا مـــن جهـــة؛ ومـــن جهـــة أخـــرى؛ فـــإن الأسطـــورة تساعـــد عـــلى تنميـــة الحقـــد وتأجيجـــه؛ ضـــد الفلسطينييـــن الممثليـــن بشخـــص دليلـــة؛ الـــتي تلصـــق الأسطـــورة بهـــا صفـــات المكـــر، ونكـــران الجميـــل، ونكـــث العهـــود..

ــ عجيـــب.. لـــم أكـــن أتصـــور كـــل هـــذا.. إذن فلمـــاذا قامـــت السينمـــا العربيـــة بتمجيـــد دور شمشـــون.. إنـــك صغيـــر.. فأنـــت لا تعلـــم أن العـــرب صـــوروا فيلمـــاً أسمـــوه شمشـــون ودليلـــة..

ــ ربمـــا تـــم تصويـــره بإيحـــاء مـــن الصهاينـــة.. بينمـــا كـــان العـــرب في غفلـــة مـــن أمرهـــم.. المهـــم فالأسطـــورة تقـــول: أنـــه كـــان في فلسطيـــن رجـــل يـــدعى شمشـــون؛ لـــه قـــوة تمكنـــه مـــن قهـــر العشـــرات مـــن النـــاس في لحظـــة واحـــدة؛ غيـــر أنـــه كـــان شغوفـــاً بالنســـاء ولوعـــاً بهـــن؛ ضعيفـــاً أمـــام إغرائهـــن.. وكـــان شمشـــون هـــذا ــ كمـــا تقـــول الأسطـــورة ــ متزوجـــاً مـــن امـــرأة فلسطينيـــة؛ فاستغـــل حمـــوه (والـــد زوجتـــه) غيابـــه في رحلـــة تجاريـــة؛ دامـــت وقتـــاً طويـــلاً؛ فزوجهـــا لغيـــره..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولما عاد شمشون من رحلته، وعلم بذلك؛ قرر الانتقام من القرية الفلسطينية بكاملها.. فأشعل النار في المحاصيل الزراعية، وأفسد الزرع والضرع.. فأجمع أهل القرية على مواجهته والتصدي له، ومنع الفساد الذي لحقهم منه.. فتمكنوا ــ بعد فترة ــ من القبض عليه، ووضعه في القيود الحديدية؛ ولكنه حطمها كما يحطم خيوطاً رثة.. ثم انهال عليهم قتلاً وتنكيلاً، وأثخن فيهم إلى أبعد الحدود.. وبعد فترة حاول أهل القرية ــ من جديد ــ نصب فخ له في بيت امرأة زارها سراً؛ فأوصدوا أبواب القرية؛ ظناً منهم بأنه سيكون بين أيديهم، وتحت رحمتهم؛ ولكنه حطم أحد الأبواب، وفر إلى التلال المجاورة.. وبقي في غيه وفساده؛ إذ كان يغير على مزارع القرية بين الحين والآخر..

وظل أهل القرية يتربصون به؛ حتى جاءتهم الفرصة المناسبة.. إذ شاهد شمشون ذات يوم دليلة وهي غادية إلى غدير الماء القريب من القرية؛ فاقترب منها مغازلاً؛ ولما عرفته شجعته في مسعاه.. واستدرجته شيئاً فشيئاً؛ مدة من الزمن.. حتى اطمأن إليها، وتشجع على زيارتها في دارها.. وكانت دليلة تسعى من وراء ذلك إلى معرفة السر؛

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الـذي يعـطي لشمشـون هـذه القـوة الخارقـة.. وذلـك لأنهـا كانـت تتصـرف معـه بإيعـاز مـن قومهـا الفلسطينييـن.. وبعـد محـاولات عديـدة، ومراوغـات؛ علمـت دليلـة بـأن السـر يكمـن في شعـر شمشـون الطويـل.. كمـا علمـت أنـه إذا أزيـل عنـه شعـره تخـور قـواه تمامـاً.. فأخبـرت قومهـا بذلـك.

وتمكنـت دليلـة في ليلـة مـن الليـالي ـ بوصيـة مـن قومهـا ـ أن تقـص شعـر شمشـون الطويـل؛ منتهـزة فرصـة نومـه مخمـوراً.. ثـم استدعـت أهلهـا؛ فقبضـوا عليـه مثـل الأرنـب المذعـور؛ فأودعـوه السجـن.. فصـدق بذلـك المثـل القائـل: (عندمـا تتعلـق المـرأة بشعـر الرجـل فقـل عليـه السـلام).. ثـم وضـع ـ مقيـداً ـ في قاعـة كبيـرة؛ حـتى يتمكـن سكـان القريـة، والـزوار مـن الفرجـة عليـه، ومشاهدتـه وهـو عـلى تلـك الحـال المزريـة؛ خائـر القـوى، هزيـل العضـلات؛ بعـد أن زالـت عنـه قوتـه الخارقـة؛ وأضـحى أضعـف الخلـق؛ بعدمـا جـزت نواصيـه، وحلـق شعـر مـن الجـذور..

ودام الحـال ـ هكـذا ـ فتـرة مـن الزمـن.. كـان شعـر شمشـون خلالهـا ينبـت شيئـاً فشيئـاً؛ ويـزداد طـولاً يومـاً بعـد يـوم؛ والفلسطينيـون في غفلـة تامـة عنـه، وعـن الخطـر المحـدق بهـم.. فلـم ينتبهـوا إلى ذلـك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخطـــر القـــادم إليهـــم.. وحـــدث ــ ذات يـــوم ــ مـــا كانـــوا غافليـــن عنـــه؛ وذلـــك حينمـــا كانـــت القاعـــة مكتظـــة بالمتفرجيـــن.. وفجـــأة تململـــ السجيـــن الأسطـــوري، وزمجـــر، ثـــم كشـــر عـــن أنيابـــه، ونهـــض؛ محطمـــاً قيـــوده؛ ثـــم وقـــف بيـــن عموديـــن كانـــا يدعمـــان سقـــف القاعـــة وصـــاح: (عـــليّ وعـــلى أعـــدائي).. ثـــم دفـــع العموديـــن أمامـــه فانهـــار البنـــاء بكاملـــه عليـــه، وعـــلى المتفرجيـــن كلهـــم..

هـــذه خلاصـــة أسطـــورة اليهـــود وشمشونهـــم الجبـــار كمـــا يسمونـــه.. ولهـــم فيهـــا عبـــر كثيـــرة؛ ونحـــن ــ بدورنـــا ــ لنـــا فيهـــا عبـــر عديـــدة ودروس مفيـــدة.. وإذا نظرنـــا إليهـــا بمنظارنـــا الخـــاص؛ نجـــد فيهـــا إشـــارات دقيقـــة لمـــا في نفـــوس الصهاينـــة؛ مـــن حقـــد دفيـــن، وفســـاد مكيـــن، وعنـــف أثيـــم؛ تجـــاه البشريـــة عمومـــاً، والفلسطينييـــن خصوصـــاً..

ــ فـــإذا كانـــت قصـــة شمشـــون أسطـــورة خرافيـــة؛ فإنهـــا ــ حقـــاً ـــ منبثقـــة عـــن عقليـــة إسرائيليـــة عنيفـــة، وفكـــر صهيـــوني متطـــرف؛ وهي تعبـــر عـــن حقيقـــة نعيشهـــا الآن..

ــ هـــذا صحيـــح.. فالأسطـــورة تعاقـــب الفلسطينييـــن عقابـــاً جماعيـــاً؛ مثلمـــا تفعلـــه إسرائيـــل في الوقـــت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحاضـــر.. فـــإذا قـــام شمشـــون بذلـــك؛ رداً عـــلى خطـــأ ارتكبـــه فلسطيـــني واحـــد.. فإسرائيـــل تفعـــل هـــذا كـــل يـــوم؛ رداً عـــلى فعـــل طفـــل؛ رمى جنودهـــا بحجـــر.. وإذا وجدنـــا شمشـــون ــ في الأسطـــورة ــ يحـــرق المحاصيـــل الزراعيـــة؛ الـــتي يمتلكهـــا أهـــل القريـــة جميعهـــم؛ عقابـــاً لهـــم عـــلى تصـــرف قـــام بـــه حمـــوه.. فـــإن إسرائيـــل لا تتـــورع ــ في هـــذا العصـــر ــ عصـــر حقـــوق الإنســـان عـــن فعـــل مـــا هـــو أشنـــع مـــن ذلـــك؛ إذ تحيـــل البـــلاد كلهـــا إلى دمـــار، وإلى أرض محروقـــة بالفعـــل.. وإذا اقتـــضى سيـــاق الأسطـــورة ــ وفي نهايتهـــا بالتحديـــد ــ أن يهـــدم شمشـــون القاعـــة كلهـــا عـــلى مـــن فيهـــا مـــن الفلسطينيـــن وغيرهـــم؛ وحـــتى عـــلى نفســـه؛ بسبـــب الحقـــد المتأجـــج في داخلـــه.. فليـــس بعيـــداً عـــلى الصهاينـــة أن يفعلـــوا ذلـــك يومـــاً مـــن الأيـــام..

ــ وهـــذه الأسطـــورة ــ كذلـــك حسبمـــا فهمتـــه ــ تبـــارك فســـق شمشـــون؛ وتضـــفي عليـــه مسحـــة إنسانيـــة.. وهـــذا يفســـر العقليـــة اليهوديـــة؛ الـــتي تبيـــح الخبائـــث مـــع غيـــر اليهـــود..

ــ وأهـــم ملاحظـــة ــ يـــا أبي ــ هي تلـــك الـــتي تفســـر النفسيـــة الإسرائيليـــة؛ المستشفـــة مـــن هـــذه الأسطـــورة.. فـــإذا كانـــت الأسطـــورة اليهوديـــة تجعـــل شمشـــون يهـــدم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القاعة عليه وعلى أعدائه.. فإن ذلك يعني بأن النفسية اليهودية تقبل بذلك الأمر.. خاصة إذا علمنا أن العقلية الحاقدة المدمرة التي ابتدعت هذه الأسطورة، وحبكت أحداثها؛ هي عقلية يهودية.. وهي التي اختارت تلك النهاية المروعة للقصة.. والذي يقرأ أسطورة شمشون الرمزية.. يجد ــ بدون شك ــ القدرة على تخيل النهاية؛ التي قد تصل إليها إسرائيل في آخر المطاف.. وما شمشون سوى رمز لما يسمى حالياً بإسرائيل؛ فهذا الكيان لا يختلف في تصرفات وردود أفعاله عن شخص شمشون.. فهي ــ كما نراها ــ مفسدة، وعابثة، وعنيفة، ومدمرة لكل شيء ينبض بالحب والحياة والسلام.. بل وقوية كذلك؛ بما تتمتع من دعم أعمى، ووسائل فاتكة..

ــ لذا فعلى الفلسطينيين والعرب الاستفادة من العبرة؛ التي تفوح بها هذه الأسطورة اليهودية.. وألا يدعوا مجالاً لشمشون جديد كي يكرر المأساة.. حقيقة إن أسلاف الفلسطينيين بحثوا بجدية وصبر؛ عن السر الذي يكمن وراء قوة شمشون؛ غير أنهم أهملوا مراقبته، والحرص على حرمانه باستمرار من ذلك الشعر الخطير.. ولأنهم لم ينتبهوا لإمكان نمو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشعر من جديد؛ ولم يشعروا به وهو يزداد طولاً مع الأيام؛ فقد حلت بهم الكارثة..

ـ نعم.. كانت غلطة كبيرة كلفتهم كثيراً.. ولو داوموا على قص شعر شمشون؛ كلما لاحظوا عليه النمو؛ لما حصل لهم ما حصل من هلاك.. وهذا ما نراه الآن في إسرائيل؛ فهي ـ كما تبدو للعيان ـ قوية بترسانتها العسكرية، وقوية بما تلاقيه من دعم، وتأييد مطلقين من دول الغرب كافة.. إذ أن قوة هذا الكيان مستمدة أساساً من خارجه؛ أي من أمريكا وأوروبا.. فما على الفلسطينيين والعرب سوى تكثيف البحث؛ للكشف عن سر وقوف تلك الدول إلى جانبها دون تحفظ.. وبعد ذلك يأتي دور ضربها وإضعافها؛ بقطع سر القوة عنها.. على ألا نغفل مواصلة مراقبتها؛ في كل مكان وزمان.. لمنعها من الامتلاك الفعلي للسلاح النووي.. وإذا امتلكته بالفعل؛ فلا بد من إيجاد وسيلة لجعل ذلك السلاح الرهيب عديم الفائدة؛ بخلق ظروف يتعذر فيها استعماله..

ـ والله كل شيء ممكن.. فنحن نسمع في هذه الأيام ـ كما قال أحد قادتك ـ أصواتاً تعالت؛ مخوفة الناس باحتمال امتلاك إسرائيل للقنبلة النووية..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ ومع هذا فالخبر يحتمل أمرين: إما عدم صحته؛ ويدخل في سياق الترويج لخبر يرمي إلى تحقيق مبدأ الردع؛ بتخويف العرب من سلاح كهذا.. أو صحته بالفعل.. وعلى هذا فالواجب يستدعي أن لا نقتصر على البحث في احتمال وجود هذا السلاح، أم عدم وجوده في إسرائيل.. بل المفروض علينا أن نعمل على مواجهة مخططاتها التدميرية.. لأن سلوك الصهاينة التاريخي؛ يبعث على الاعتقاد أن لا شيء يمكن أن يمنعهم من استعمال ذلك السلاح الخطير..؟ لأن عقلية الصهاينة متطابقة مع أسطورتهم.. ولا تتناقض في شيء مع ما توحي إليه أسطورة شمشون البغيضة.. إذن فمن خلال العودة إلى هذه الأسطورة؛ يمكننا ـ ببساطة ـ أن نجد الجواب..

عندها يمكن أن نتخيل ما ستقوم به إسرائيل في حال اليأس التام.. أو حين تصبح في طريق الزوال.. عندها تكون فرضية إلقائها القنبلة النووية على أعدائها؛ غير مستبعدة تماماً؛ ولا يهم بعد ذلك إن لحق بها الأذى مع أعدائها؛ إذ ستصرخ عندئذ كما صرخ شمشون: (عليّ وعلى أعدائي)..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـ لـذا فـإن هـذه الصـورة الخياليـة المفزعـة؛ تلزمنـا بشـن حملـة دعائيـة واسعـة؛ ضـد إسرائيـل، ومخططاتهـا الجهنميـة.. كمـا تفـرض علينـا بـذل استعـدادات جـادة، وحثيثـة للوقـوف في وجـه الجهـات الـتي تستمـد إسرائيـل قوتهـا منهـا؛ لمنـع تلـك القـوة مـن النمـو؛ حـتى لا تتحـول إلى خطـر لا يمكـن رده.. وعلينـا تذكـر شعـر شمشـون باستمـرار، والعمـل ـ بـدون توقـف ـ عـلى إزالتـه، ومنـع نمـوه..

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المحتوى

ـ تقديم:................................... 5
ـ اللعبة الخاسرة:....................... 8
ـ الخلل:................................... 55
ـ الخيبة:.................................. 72
ـ بين الميم والنون:.................. 95
ـ شمشون الجديد:...................... 107
ـ المحتوى:............................... 119

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com